التـــاريـــخ

منهجاً، وتفسيراً، وكتابة

الأستاذ الدكتور

حمدنا الله مصطفى حسن

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر

رئيس قسم التاريخ

بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أصبح المنهج التاريخى فى هذه الآونة جد خطير حيث دخلت علوم الإنسان جميعها فى طور جديد، يمتاز بالدقة والعمق والسرعة التى جعلت حقائق العلم تتجاوز حد الخيال، وكان لابد للتاريخ أمام هذا كله أن يساير هذا التطور وإلا انتهى أمره.

وفى الصفحات التالية محاولة لشرح مفهوم منهج البحث التاريخى وخطوات البحث التاريخى، وتعريف ببعض المدارس الفلسفية لتفسيره، وأخيراً الوقوف عند بعض الرواد من المؤرخين الذين كانت لهم رؤى ثاقبة فى تطور الأحداث التاريخية جديرة بأن نتعرف عليها وعلى أصحابها لتكون مثالاً حياً أمام الناشئة من الباحثين تضىء لهم الطريق، فقد أنفق هؤلاء الرواد معظم سنى حياتهم مع التاريخ.

وفى تقديرى أن استخدام منهج البحث التاريخى هو الذى يميز بين الباحث الجاد فى التاريخ الذى ينشد الحقيقة التاريخية، وبين أولئك النفر الذين يلتفون بعباءة التاريخ دون فهم لمنهاجه ويخرجون لنا عشرات الكتب، ويغترفون من بحر التاريخ ـ كما يقول البعض ـ اغتراف حاطب الليل.

وهذه المحاولة التى جاءت بشكل مركز تلقى الضوء على هذه القضايا وتحاول أن توضح أن للتاريخ منهجاً كسائر العلوم التجريبية وعلى

من يريد أن يفهم التاريخ أن يسير فى الدرب السليم بدلاً من التخبط فى ظلمات التاريخ لأنه لم يفهم منهاجه.. فالتاريخ هو ذاكرة الشعوب والأمم، وأمانة خطيرة يحتاج إلى عقل سليم يحفظ الذاكرة ويصون الأمانة.. إذن لا مفر من السير وفق منهج بحثى قويم يقودنا إلى الحقيقة وصون الذاكرة!!

ولقد وقر فى عقول الكثيرين أن التاريخ مجرد حكايات تروى لمجرد التسلية وقتل الوقت سواء فى مجالس الملوك والأمراء أو فى منتديات العامة من الناس أو لتسجيل مفاخر القبيلة ومآثر الآلهة. واختلطت على هذا النحو حوادث التاريخ بالخرافات والخزعبلات ونسج الخيال الذى تقتضيه هذه الأحاجى، وأصبح من الصعوبة الفصل بين الأدب والتاريخ وغيرهما من العلوم. ولا نعنى بذلك انعدام الصلة بين العلوم الإنسانية والتاريخ، بل المقصود بذلك هو غياب المنهج التاريخى آنذاك فى عرض الأحداث التاريخية.

وتجدر الإشارة هنا إلى التنبيه ودق نواقيس الخطر محذرين من ذلك الركام الهائل من الكتب والدراسات التى راح بعض الهواة يسطرها ويدخلها فى عداد الكتب التاريخية والتاريخ منها براء. ويعجب كثيراً معشر المؤرخين الذين أفنوا سنوات طويلة من عمرهم فى حقل التاريخ من أولئك الذين يخرجون عشرات الكتب وكأنهم يغترفون من بحر أو محيط، وقد تبدو مثل هذه الكتابات السطحية للبعض ممن لا علم لهم بالمنهج التاريخى أنها تاريخ حقيقى، مبهورين بها وفاغرى الأفواه من كبر حجمها، وبريق لمعانها، ولكنها فى حقيقة أمرها لا تساوى ثمن المداد الذى كتبت به.

إن التاريخ وحوادثه أشبه ببحر لجى أو محيط ممتد عميق، والمؤرخ التقليدى يكتفى بتسجيل الهزات السطحية، أما المدققون الذين يسيرون على هدى من منهج التاريخ فلا يكتفون بتلك التجاعيد التى تكسو سطح البحار والمحيطات، بل يبحثون عن أسبابها فى الأعماق، فهى بالتأكيد وليدة ما يدور فى الأعماق البعيدة.

لقد بدأ التاريخ فى السنوات الأخيرة يأخذ مكانته الحقيقية، وأصبح له منهجه العلمى الذى لابد أن يسير على دربه من أراد الوصول أو الاقتراب من بر الحقيقة التاريخية، كماأصبح التاريخ أيضاً يلقى عناية فائقة لدى الدول المتقدمة، سواء داخل الجامعات أو مراكز البحوث التى تعنى به، حيث يؤخذ رأى المشتغلين به فى أدق وأخطر القضايا فى محاولة لتتبع جذورها والوصول إلى رأى صائب فيها. ولعل الاستعانة بالمؤرخين الأكاديميين فى قضية طابا وقضية النزاع فى الشرق الأوسط بين العرب وإسرائيل ليقيم الدليل على صدق هذه المقولة. إن العالم ـ وهو يعيش القرن الحادى والعشرين ـ لم يعد يؤمن بالهواية وحسب، ولكن بالتخصص العلمى الذى أصبحت له قواعده ومناهجه المختلفة، ومنها المنهج التاريخى.

دكتور حمدنا الله مصطفى حسن

مصر الجديدة .. القاهرة ـ سبتمبر ٢٠٠٤م

الفصل الأول

مقدمات وقضايا منهجية

- معني كلمة منهج
- أنواع المناهج
- معنى التاريخ
- هل التاريخ علم؟
- أهمية دراسة التاريخ
- من هو المؤرخ؟

بداية نود أن نوضح أن كلمة منهج Method فى الانجليزية وMéthode فى الفرنسية وما يناظرها فى اللغات الأوروبية قد استخدمها اليونانيون قديماً منذ أيام أفلاطون بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة، ومنها اشتق المعنى الذى يدل على الطريق أو المنهج الذى يسوقنا إلى الهدف المرجو. كما أن المنهج يعنى أيضاً تطبيق القواعد المنطقية التى يسير بمقتضاها العقل لاكتساب الحقائق العلمية المنظمة من تحليل وتركيب وتخيل وملاحظة وموازنة وتعريف وتصنيف وتقسيم واستخدام للاستدلال والاستقراء والقياس. وكل هذه العمليات يقصد بها الوصول إلى الحقيقة التاريخية أو الاقتراب منها.

وهذا العلم المسمى بعلم المناهج Methodology والذى يبحث فى المنهج لم يعرف إلا منذ العصر الحديث ابتداءً من عصر النهضة الأوروبى واستمر ينمو رويداً رويداً حتى أصبح الآن يقف على أرض صلبة بعد أن استوى عوده.

أنواع المناهج:

أمكن تقسيم مناهج البحث العلمى إلى أنواع ثلاثة:

أولاً: المنهج الرياضى أو الاستدلالى:

وهو الذى نسير فيه من قضية نسلم بها إلى قضايا أخرى تنتج عنها دون اللجوء إلى التجربة، وهذا السير يكون إما عن طريق الحساب أو القول، فالرياضى الذى يجرى عمليات حسابية دون إجراء تجارب يقوم بعملية استدلال.

ثانياً: المنهج التجريبى أو الطبيعى:

وهو المنهج الذى تستخدمه مجموعة من العلوم الطبيعية بهدف الوصول إلى القوانين العامة فى محاولة لتفسير ظواهر الطبيعة، ويشمل هذا المنهج الملاحظة والتجربة معاً حيث نبدأ فيه من جزئيات أو مبادىء غير يقينية تماماً ونسير منها معممين إلى قضايا عامة، لاجئين فى كل خطوة إلى التجربة لضمان صحة الاستنتاج.

ثالثاً: المنهج الاستردادى أو المنهج التاريخى:

وهو المنهج الذى يقوم من خلاله الباحث باسترداد الماضى تبعاً لما تركه من آثار أياً كان نوعها سواء أكانت مكتوبة أو منقوشة أو قائمة على شكل أبنية، وليس المقصود باسترداد الماضى أو الوقائع لكى تحدث أو تحقق فعلياً من جديد، بل المقصود هو محاولة المؤرخ أن يستعيد فى الذهن وبطريقة عقلية صرفه ماجرت عليه أحداث التاريخ فى مجرى الزمان من خلال الوثائق والمصادر والمراجع وغيرها لتصورها وفهمها وتحليلها والخروج منها إلى قوانين ومبادىء عامة.

معنى التاريخ:

تفيد لفظة «التاريخ» فى معناها اللغوى عند العرب إلى الأوقات من ساعات وأيام وشهور وسنوات. أما السخاوى فيعرفه فى كتاب (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) بأنه فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها، وموضوعه الإنسان والز فنمان.

أما ابن خلدون فيقول «إنه فن يوقفنا على أحوال الماضيين من الأمم فى أخلاقهم والأنبياء فى سيرهم والملوك فى دولهم وسياستهم حتى تتسم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا».

ويعرفه «هرنشو» صاحب كتاب (علم التاريخ) بأنه مدونة العصور الخوالى وكتابها الحافظ لأخبارها أو هو التدوين القصصى لمجرى الأحداث العالمية كلها أو بعضها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن التاريخ يهتم بعناصر ثلاثة: الإنسان، والزمان والمكان وما ينشأ بينهما جميعاً من تفاعلات. فالتاريخ بذلك هو دراسة لجهود الإنسان وأعماله التى قام بها فى زمان مضى فوق مكان معين.

ولا ينبغى أن يفهم أن التاريخ مجاله فقط الأحداث السياسية، بل أن التاريخ ـ فى الوقت الحاضر ـ تجاوز هذه المرحلة باعتباره أحد العلوم الاجتماعية التى راحت تبحث كافة جوانب الحياة الاجتماعية من اقتصادية واجتماعية وفكرية ودينية وحربية وفنية وسياسية فى محاولة للوصول إلى القوانين التى تحكم حركة التطور فى كل جانب من هذه الجوانب الاجتماعية فرادى أو مجتمعة على اعتبار أن الإنسان هو محورها جميعاً.

هل التاريخ علم؟

تساؤل كثر ترديده فى هذه الأيام، و ربما سيظل يطرح نفسه لفترة طويلة على بساط البحث. فالتاريخ عند البعض لا يُعد علماً نظراً لأن سنوات طويلة خلت كان فيها التاريخ يعنى بالقصص وسير الملوك، لا يحكمه منهج علمى كسائر العلوم الطبيعية بعكس الأخيرة التى يمكن أن يخرج فيها الباحث فى معمله بنتائج معينة إذا ما سار وفقاً لخطوات البحث العلمى.

وهو عند البعض الآخر علم كسائر العلوم بعد أن تقدمت الدراسات التاريخية وأصبح لها منهج علمى تسترد فيه الوقائع وتخضع لخطوات دقيقة يتنقل فيها الباحث تدريجياً حتى يصل إلى الحقيقة أو يقترب منها.

وقد استخدمت المواد الكيميائية فى الوثائق التاريخية لمعرفة إن كانت هى الوثيقة الأصلية أم لا وغير ذلك من الوسائل العلمية بحيث أصبح التاريخ لا يختلف عن سائر العلوم الطبيعية.

وقبيل أن نصدر حكمنا فى هذه القضية يجدر بنا أن نعرض لبعض آراء الباحثين ممن تصدوا لهذه المسألة. فالدكتور حسين فوزى النجار (التاريخ والسير) يرى أن التاريخ علم وإن كان لا يدخل فى مضمار العلوم التجريبية، وهو علم بحث وتمحيص، بحث وراء الحقيقة وتمحيص لها.

أما المؤرخ الانجليزى بيورى (Bury) فقد قال بأن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل.

ويرى الفلاسفة الطبيعيون بأن المادة التاريخية التى يعنى بها المؤرخ تختلف عن مادة العلوم الطبيعية من حيث كونها غير ثابتة وغير قابلة للتحديد، وأنه من الصعب على الإنسان أن يعاين وقائع التاريخ مباشرة، وأن الاختبار والتجربة غير ممكنين فى دراسة التاريخ بحيث لا يمكن لحادثة تاريخية أن تتكرر مرة أخرى.

ويقول رجال الأدب: إن التاريخ سواء أكان علماً أم لا فهو دون شك فن من الفنون، والعلم لا يعطينا من التاريخ سوى العظام المعروقة واليابسة، وأنه لا مفر من خيال الشاعر لنشر تلك العظام وبعث الحياة فيها، وحين يحييها الخيال، فهى بحاجة إلى براعة الكاتب وبلاغته.

والتاريخ عند «هرنشو» ليس كعلم الفلك ـ علم معاينه مباشرة، ولا كعلم الكيمياء، علم تجربة واختبار، ولكنه علم نقد وتحقيق، وأن علم الجيولوجيا هو أكثر العلوم قُرباً وشبهاً به، فكل من المؤرخ والجيولوجي يدرس آثار الماضي في محاولة لاستخلاص شيء من الماضي والحاضر سواء بسواء. وتزداد صعوبة المؤرخ عن الجيولوجي من حيث اضطرار الأول إلى دراسة وتفسير الدافع البشري والفكري والعاطفي الذي أدى إلى نشوء الحدث التاريخي.

ويتساءل الدكتور شاكر مصطفى (مجلة عالم الفكر ـ المجلد الخامس ١٩٧٤) بعد عرض مسهب لهذه القضية في محاولة للخروج باجتهاد فيها قائلاً: هل التاريخ علم؟ ويجيب: قد رأيت.. فهو في نظره ليس بعلم كما هو مفهوم من المعنى الكلاسيكي لكلمة علم وخصوصاً في العلوم الطبيعية وما يتم من معالجة وضعية للمادة تكشف بها علاقاتها حتى تتحول تلك العلاقات إلى قوانين رياضية، بل هو التاريخ من ميدان آخر. ثم يمضي متسائلاً: إذن هل هو ثقافة؟ ويجيب بلى، ولكنه يحذر في ذات الوقت من فهم الكلمة على أنها عكس العلم أو حتى أقل درجة منه أو أنها نوع من الترف الفكري، بل هو ثقافة بمعنى إعطاء الإنسان كافة إبعاده كإنسان. ثم يطرح تساؤلاً ثالثاً: هل التاريخ دراسة اجتماعية؟ ويجيب: قد تكون الدراسة الاجتماعية بعضاً منه فهو أكثر إتساعاً منها في المدى الأفقي والمدى الزمني بما يحويه من عصور غابرة. وينتهي إلى أن التاريخ علم إنساني (في مقابل العلم الطبيعي)، كما أنه معرفة مختلفة في الميدان والطبيعة والموضوع عن العلوم الطبيعية.

وهكذا نخلص إلى أن التاريخ لا يمكن بحال من الأحوال أن نجرده من صفة العلم لأنه أصبح يستخدم منهاجاً خاصً به يسير وفقاً لخطواته، ولكنه فى ذات الوقت يختلف عن العلوم الطبيعية لأن الدوافع الإنسانية من الصعب قياسها كما هو الحال بالنسب لبعض العلوم الطبيعية التى ترصد كل الظواهر الدقيقة المتعلقة بموضوع البحث، وإن كان ذلك كله لا يمنع المؤرخين من ايجاد تفسير لهذه الدوافع بطرق أخرى فى محاولة الوصول إلى الحقيقة التاريخية أو حتى الاقتراب منها على الأقل.

أهمية دراسة التاريخ:

لا شك أن المرء يقف ـ أحياناً ـ بينه وبين نفسه متسائلاً عن جدوى العلم الذى يدرسه، وما الفائدة التى تعود عليه من وراء دراسته، ولا نعنى هنا الفوائد المادية، فأصحاب العلم فى زمننا المعاصر هم أقل الناس كسباً من وراء علمهم، ولكن نعنى الفوائد البعيدة التى تعود بالنفع على الفرد والجماعة. فلا يختلف اثنان حول قيمة التاريخ فى تربية الدارسين وتثقيفهم. فقد عرف الناس فوائد التاريخ منذ أمد بعيد ورأوا فيه مدرسة من مدارس الحياة لها قيمتها الثقافية، كما تجلت قيمة التاريخ فى الجانب الدينى، إذ أصبح علماً تكميلياً للعلوم الدينية. فقد أنار التاريخ بعض القضايا ـ على سبيل المثال ـ بالنسبة للحضارة الإسلامية زمن البعثة المحمدية وما نشأ عنها من فتوحات وما نتج عن هذه الفتوحات من مشاكل فقهية حول نظام الأرض من حيث فتحها عنوة أو صلحاً وبالجزية والخراج وقانون أهل الذمة.

وفى أوربا فى أوائل العصور الحديثة كان التاريخ يدرس لأبناء النبلاء والأمراء كوسيلة من وسائل تدريبهم على ممارسة أمور الحكم، كما

أصبح الآن يدرس فى الجامعات والمعاهد العليا لإعداد الخبراء السياسيين، إذ لا يمكن لأى سياسى فى بلد ما أن يفهم مجزيات أمور وطنه ما لم تكن لديه خلفية واعية وواضحة حول تطورات الأحداث فى بلاده فيما مضى حتى يمكنه الاستفادة من تلك التجارب وعدم الوقوع فى أخطاء الماضى.

ويحتل التاريخ مركزاً مرموقاً فى التربية الخلقية، فهو يرمى إلى تكوين الأخلاق وبناء الشخصية، لأن التاريخ يدرس نمو الإنسانية وتراثها الاجتماعى ولا يمكن أن ننكر فوائد التاريخ فى التربية العقلية والجمالية، فكلما زادت معلومات الفرد زاد فهمه للحياة واتسع أفق تفكيره.

وفى محاولات الباحث أيضاً من خلال قراءاته للمصادر الأصلية وتفسيرها وتحليلها ونقدها ما يثير همته ويبعث فيه حب الحقيقة والبعد عن التحيز. وفى عبارة موجزة نقول إن التاريخ يعين على وقوف الإنسان على حقيقة نفسه، ولا نعنى بذلك مجرد معرفته بمميزاته الشخصية التى تفرق بينه وبين الآخرين من الأفراد، وإنما نعنى أن يعرف الإنسان طبيعته كإنسان، وما يستطيع أن يعمله ويقدمه لبنى جنسه ولن يستطيع القيام بذلك إلا فى حالة واحدة، إذا عرف الإنسان ماذا فعل فى الماضى وما هى الجهود التى بذلها فعلاً.

من هو المؤرخ؟

قد يخال البعض أن حصول الباحث على الدرجات العلمية كاف لتأهيل الفرد كى يصبح باحثاً فى التاريخ، ولكن الحقيقة التى لا يمكن إغفالها أن هذه الدرجات رغم أهميتها تحتاج بجانبها إلى جملة صفات ينبغى أن يتحلى بها المؤرخ، إذا أنها تضفى على كتابته كثيراً من

الطمأنينة لمن يقرأها وتحدث فى نفسه أثراً بعيداً، فليس كل من أمسك القلم وسطر بضعة صفحات أو أخرج عدة كتب يصبح مؤرخاً إن لم يكن تتوفر فيه عدة سمات وأولها الإصطبار أو الصبر وحب الموضوع والدراسة التى يقوم بها، فبعض الموضوعات تكون شاقة، نادرة المصادر، غامضة الحقائق والوقائع، بها اختلاط واضطراب شديدين فإن كان الباحث قلقاً حرج الصدر، قليل الحيلة، ضيق الأفق لا يمكنه بأى حالة من الأحوال أن يمضى قدماً فى بحثه بل ربما يكون هذا البحث سبباً فى ازدياد نكباته، حيث يفقد الباحث ثقته بنفسه، الأمر الذى تهتز معه شخصيته فيفقد توازنه ويخسر كل شيء. أما الباحث الصبور فيتعامل مع بحثه بتؤده وهدوء، فحين تصادفه مشكلة من المشاكل كندرة المصادر مثلاً يسارع إلى زملائه فى البحث التاريخى سائلاً النصح فربما يجد لديهم حلاً، أو يلجأ إلى أستاذه المشرف على بحثه ليذلل له بعض الصعاب أو يرشده إلى المكان الذى توجد فيه المصادر. ولا بأس من أن يخلق مودة صادقة مع القائمين على حفظ الكتب بالمكتبات، فلا شك أن مثل هذه العلاقات العلمية النظيفة تضيء للباحث كثيراً من الأمور المظلمة فى بحثه مما يجعله يسير على صراط مستقيم نحو نتائج تاريخية صادقة أو أقرب إلى الصدق.

ومن الصفات التى ينبغى أن تتوافر فى المؤرخ الأمانة العلمية فلا تجعله الأهواء يميل إلى جانب على حساب الجانب الآخر، فلا يكذب ولا يجامل ولا يتحايل بل ينبغى أن يكون هدفه هو حب الحقيقة فقط، فالمؤرخ أشبه بالقاضى عليه ـ بعد أن يخضع قضيته لقانون البحث ـ أن يحكم ضميره وعقله فيصدر حكماً نزيهاً. ولا يصح للمؤرخ أن ينافق حاكماً ولا صاحب جاه، فإخفاء الحقيقة قد تعوق مسيرة مجتمعه ووطنه بما يترتب

على إخفاء الحقيقة حيث تبقى الحقائق محجوبة وتظل الأخطاء باقية ولا يستفاد بالتالى من الحقيقة التى يتوصل إليها المؤرخ لدفع عجلة التقدم.

وينبغى أن يفصل المؤرخ فصلاً تاماً بين ما هو شخصى وبين ما هو واقع، وضرورة السير فى طريق الموضوعية التاريخية. ومهما كانت الحقيقة مرة فى بدايتها فلا شك أنها سلوك قويم وتربية خلقية جديرة أن يتحلى بها كل الأفراد وفى مقدمتهم المؤرخون.

كذلك فإنه لابد أن يكون المؤرخ على قدرة فائقة فى التحليل والنقد، ذا بصيرة نافذة، وإلا أصبح مجرد راوية أو قصاصاً للتاريخ ولا يستحق أن يكون بين زمرة المؤرخين. فعليه أن يخضع كل وقائعه لقواعد المنهج التاريخى حتى تأخذ كتابته الطابع العلمى ويطرح الأهواء جانباً.

ومن الأمور الهامة التى لابد أن يتحلى بها المؤرخ، العقل المنظم، فبهذه الصفة يمكنه أن ينسق بين الحقائق ويميز بينها بوضوح شديد وأن يحدد العلاقة بين وقائع التاريخ من حيث الزمان والمكان، وإن لم يفعل ذلك فلسوف تختلط أمامه الأحداث وتضطرب جزئياتها الصغيرة وتتقاذفه أمواج بحرلجى فيغرق فيها لأنه لم يتسلح بهذه الصفة الضرورية.

وعلى المؤرخ أيضاً أن لا يجعل أبحاثه ودرجاته العلمية سبيلاً فى الوصول إلى وظائف إدارية بعيدة عن مجاله الدقيق إلا إذا كان بوسعه العطاء فى المجالين. وعلى المؤرخ ألا يسعى للشهرة والظهور والكسب المادى، لذا فإنه يجدر بالمؤرخ أن يتفرغ لدرسه وبحثه تاركاً غير ذلك، فشرف العلم لا يدانيه شرف، فالعلماء هم عمد الحضارة وأسسها الراسخة وهم المسئولون عن تقدم الإنسانية وازدهار الحضارات.

وعلى المؤرخ أيضاً أن يكون ذا قدرة على التعبير والتذوق والخيال بحيث يمكنه أن يفسر لنا آراء ونوازع الآخرين. فدراسة القادة أو الزعماء أو العلماء أو السياسيين ممن اختلفت مشاربهم وأطباعهم فى حاجة إلى بحاثة مدقق ينفذ إلى نفوسهم ويستخرج منها تلك الأسرار ويفسرها للقارىء وهو أمر عسير جداً ولا يستطيع القيام به إلا من أوتى قدرة على التذوق والخيال والاحساس.

تلكم هى المتطلبات الأساسية والضرورية للباحث فى التاريخ وهى صفات ضرورية لابد أن تتوفر فيه حتى يستطيع أن يمضى دون عثرات أو ذلات فى بقية دروب البحث عن الحقيق التاريخية.

الفصل الثانى

العلوم الضرورية للباحث

- اللغات
- فقه اللغة
- علم قراءة الخطوط
- علم الوثائق
- علم الرنوك
- علم المسكوكات (النقود)
- الجغرافيا
- الاقتصاد
- الأدب
- الفن
- علم الاجتماع
- علم النفس
- علم السكان
- علم الانثروبولوجيا
- العلوم السياسية

لا يمكن للمؤرخ أن يقوم بدراسة التاريخ بمعزل عن بعض العلوم الأخرى التى تسهل مهمته فى البحث والوصول إلى الحقائق التاريخية. وقد اتفق كثيرون ممن خبروا دراسة التاريخ والكتابة فيه على أن هناك جملة علوم موصلة أو مساعدة فى هذا المجال. والبعض اعتبرها موصلة لأنها تساعد الباحث فى الوصول إلى الحقيقة، أما البعض الآخر فقد اعتبرها أساسية لأنه بدونها تكون الحقيقة مبتسرة. ومن أهم هذه العلوم ما يلى:

١ ـ اللغات:

لا يمكن فى تقديرنا أن تكتمل جوانب البحث التاريخى إن لم يقرأ الباحث كافة الآراء المتعلقة ببحثه، المؤيدة منها لأفكاره والمعارضة لها أيضاً فى آن واحد حتى يستطيع الوقوف على الحقيقة التاريخية، إذ أن الخطورة فى كتابة التاريخ تكمن فى الاعتماد على مصدر واحد ربما يكون منحازاً لفكرة ما، وهنا تضيع الحقيقة. ولما كانت قراءة تلك الآراء المتباينة تحتاج إلى اجادة لغات أخرى بجانب اللغة الأصلية للباحث التى يجيد القراءة والكتابة بها، فقد وجب عليه أن يزود نفسه بمعرفة عدة لغات أخرى أو على الأقل معرفة لغة رئيسية ذات صبغة عالمية. وعلى سبيل المثال فإن الباحث فى التاريخ الحديث بصفة عامة لابد له من معرفة اللغة الانجليزية أو اللغة الفرنسية حتى يتسنى له قراءة الدراسات التى كتبت بهاتين اللغتين العالميتين، الأمر الذى يضفى على بحثه قيمة علمية ليس لأن بحثه مرصع بأسماء كتب ودراسات أجنبية وحسب، ولكن لأنه راح يفتش ويقلب الآراء فى كل لغة بحثاً عن وجهات نظر جديدة أو حتى متباينة فى محاولة للأخذ بيده نحو الوصول إلى الحقيقة التاريخية،

وينبغى أن نشير إلى أن هذه اللغات تختلف باختلاف البحث التاريخى، ومن منطقة إلى أخرى، فالباحث فى عصر النهضة الايطالية لابد له من اللغة الايطالية، والباحث فى الثورة الفرنسية تلزمه اللغة الفرنسية، والباحث فى تاريخ الدولة العثمانية لابد له من اجادة اللغة العثمانية وهكذا.

٢ ـ فقه اللغة Philology

قد يتصور البعض أن معرفة الباحث فى التاريخ لفقه اللغة فيه شىء من الترف الفكرى، ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً، فالإلمام بهذا الجانب يجعل الباحث على وعى تام بمعانى الألفاظ والعبارات التى يتعايش معها فى بحثه. فمن المعروف أن اللغة كائن حى ينمو كالإنسان ويتغير بتغير الأيام والسنين، وتبعاً لذلك تتغير العبارات والألفاظ وتأخذ معنى آخر غير الذى كلن من قبل، وقد يكون لهذه الكلمة عدة مترادفات ومشتقات ومعانى، فهى قد تعنى عند الباحث فى التاريخ شيئاً، وعند رجال الأدب شيئاً آخر. ومن هنا كان لمعرفة فقه اللغة أهمية بالغة فى عملية البحث التاريخى.

٣ ـ علم قراءة الخطوط: Paleography

وهو من العلوم التى لا غنى عنها لمن يروم البحث فى التاريخ ذلك لأن أحرف وابجديات كل لغة من اللغات مرت بمراحل متنوعة من فترة إلى فترة الأمر الذى يعكس تنوعاً على الكتابات التاريخية وشكلها فى تلك الفترات، فعلى سبيل المثال هناك خط يعرف بخط «القرمة» كتبت به كثير من وثائق القرن السابع عشر والثامن عشر فى فترة الحكم العثمانى، ولابد للباحث فى تاريخ مصر فى تلك الحقبة الزمنية أن يكون على دراية

بالخط حتى يتسنى له قراءة وثائق تلك الفترة، كما يوجد ركام هائل من تلك الوثائق بالمحكمة الشرعية بالقاهرة

٤ ـ علم الوثائق: Diplomatics

وهو من العلوم المتصلة بعلم قراءة الخطوط، فمن المعروف أن الوثيقة هى المادة الخام التى يصوغ منها الباحث نسيج هذه المادة التاريخية التى ربما تكون مدونة على الورق أو ربما تكون عبارة عن نقوش على جدران المعابد وغيرها، وقد اصطلح المؤرخون على تسمية رسمية لها فقالوا: إنها الكتابات الرسمية أو شبه الرسمية كالأوامر والقوانين والقرارات والمعاهدات والاتفاقيات والمراسلات السياسية والكتابات التى تتناول عادات الشعوب ونظمها وتقاليدها والمقترحات التى تصدر عن المسئولين فى الدولة. كل ذلك يمثل المادة الخام للمؤرخ التى يمكن أن يفيد منها إن كانت لديه دراية وقدرة على قراءة الوثيقة والتحقق من صحتها الذى يتطلب معرفة اللغة التى كتبت بها الوثيقة والخط والطريقة التى كانت متبعة آنذاك فى الكتابة الرسمية والأساليب والمصطلحات التى كانت شائعة فى زمن الوثيقة بالإضافة إلى التحقق من صحتها إن كانت هى الوثيقة الأصلية أم أنها مزورة.

٥ ـ علم الرنوك Heraldry

وهو من العلوم ذات الصلة الوثيقة بعلم الوثائق. والرنوك فى معناها العام هى عبارة عن الشعارات والعلامات المميزة التى تظهر على الأختام لتميز الوثائق فى فترة من الفترات أو لتمييز الدروع والملابس والاعلام وغيرها. ومعرفة هذه الرنوك لا شك أنها تساعد المؤرخ على التحقق من

صحة وثيقته، بالإضافة إلى أنها تسد بعض الفجوات فى بحثه كتاريخ معين لم يستطيع التوصل إليه وغير ذلك.

٦ ـ علم المسكوكات (النقود ـ النميات) Numismatics

وهذا العلم يقدم للباحث فى التاريخ معلومات قيمة، وخصوصاً الباحث فى التاريخ الاقتصادى، فهى انعكاس حقيقى لحالة اقتصاد المنطقة التى يقوم بدراستها والتأريخ لها اقتصادياً، فكلما كانت قيمة العملة ثابتة لأوقات طويلة فى بلد ما دل ذلك على رخائه، أما إذا لجأت الدولة إلى تخفيض وزن العملة أو تقليل نسبة المعادن الثمينة فيها وذلك بخلطها بمعادن زهيدة مثل القصدير وغيره، كان ذلك دليلاً على افلاس اقتصاد هذا البلد وتعرضه لمتاعب اقتصادية. كذلك فإنه كلما كثر تداول العملات صغيرة القيمة كالمليم ونصف المليم أو الفلس دل ذلك على كثرة التعامل ووجود رخاء اقتصادى، ويحدث العكس إذا اختفت هذه القطع الصغيرة، حيث يزداد التضخم وترتفع الأسعار، الأمر الذى يعطى المؤرخ الاقتصادى دلالات بينة على حالة الاقتصاد فى الدولة التى يتعرض لها بالدراسة.

ولا تقصر أهمية المسكوكات على الجانب الاقتصادى فحسب ولكنها تفيد أيضاً فى جوانب أخرى كالجانب السياسى، فهى على سبيل المثال تفيدنا فى معرفة تواريخ حكم بعض الملوك والحكام إذا ما فشلنا فى استنطاق الوثائق، إذ أن كثيراً من النقود تدون عليها تواريخ ميلاد الحكام وتوليتهم للحكم.

٧ ـ الجغرافيا:

إذا كان التاريخ يهتم أساساً بالزمان فإن الجغرافيا تهتم فى المقام الأول بالمكان، وليس هناك أدنى شك فى وجود صلة بين هذين

العنصرين: الزمان والمكان. فالأرض هى مسرح أحداث التاريخ الذى جرت عليه وقائعه، وهى فى ذات الوقت ذات أثر كبير فى مصير الإنسان. فكما يذكر بعض الباحثين فإن السهول والجبال والصحارى والوديان والبحار والأنهار والغابات والرياح ونوع الثروة الطبيعية تؤثر فى تكوين الفرد ولغته وصوته ولون بشرته وعينيه وشعره وموسيقاه وفكره وتصويره وهندسته وحرفته وفى حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ولقد كان لموقع مصر الجغرافى أثر كبير فى تاريخها، فقد لعب موقعها بين الشرق والغرب دوراً كبيراً فى جعلها حلقة وصل بين هذين العالمين وخاصة فى عهد المماليك الأمر الذى أدى إلى ثرائهم وحين اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الخامس عشر كان هذا الاكتشاف بمثابة ضربة قوية لدولة المماليك فكسدت تجارتهم وانعكس ذلك على وضعهم السياسى، الأمر الذى جعل السلطان الغورى لا يستطيع الصمود أمام سليم الأول. كما كان لحفر قناة السويس أثر كبير فى احتلال البلاد عام ١٨٨٢ ، حين أصبحت مصر بعد حفر القناة متحكمة فى أقصر الطرق الموصلة إلى أكبر مستعمرة بريطانية وهى الهند.

كذلك فقد كان لسوء المناخ فى روسيا أكبر الأثر فى الحملة ا لتى قادها نابليون عام ١٨١٢ حيث الشتاء القارص الذى لم يحتمله الجنود، وقد تكرر نفس هذا العامل فى الحرب العالمية الثانية حين انهزم الألمان أمام الروس ولم يستفيدوا من دروس الماضى.

٨ ـ الاقتصاد Economy

لا شك أن العوامل الاقتصادية تلعب دوراً أساسياً فى مجرى تاريخ الأحداث، والدولة ذات الاقتصاد الراسخ يمكنها أن تلعب دوراً سياسياً كبيراً

فى الأحداث العالمية. وتصدق هذه المقولة إلى حد كبير على المستوى الفردى فى المجتمع وتجعله يلعب دوراً كبيراً ورئيسياً بين أفراد المجتمع.

ولقد أحدث الانقلاب الصناعى فى القرن الثامن عشر فى أوربا ثورة كبيرة فى النظم الاقتصادية الأمر الذى أدى بأوربا إلى سياسة التوسع الاستعمارى للحصول على المواد الخام وفتح أسواق جديدة لها.

وكانت الحملة الفرنسية التى قادها بونابرت عام ١٧٩٨ على مصر تهدف إلى ضرب انجلترا اقتصادياً فى أكبر مستعمرة لها وهى الهند. وهى أيضاً فى ذات الوقت حلقة فى سلسلة الحصار الاقتصادى الذى تحاوله كلتا الدولتين (انجلترا ـ فرنسا) لضرب الأخرى.

٩ ـ الأدب:

ويمكن للمؤرخ أيضاً أن يستعين بالأدب فى عرض موضوعات التاريخ، فتذوق الشعر يعينه على فهم ملكة الخلق والابتكار، كما أن قراءة القصص والروايات الأدبية تجعله قادراً على عرض وإبراز حوادثه الهامة ووضع التفاصيل والجزئيات فى مكانها الملائم، كما أن تمكن الباحث من ناصية اللغة وأساليبها الجذابة تثير انتباه القارىء وتجعله مشوقاً إلى مواصلة القراءة مهتدياً بالعرض والأسلوب الشيقين للكاتب والانتقال من فكرة إلى أخرى فى سهولة ويسر.

١٠ ـ الفــــن:

كذلك فإن معرفة شيء ما من الفن بكافة ألوانه من نحت ورسم ونقش وتصوير وعمارة وموسيقى وغيرها تعين المؤرخ على ملء ثغرات بحثه التى لا تشير إليها الوثائق أحياناً، فهى تصور له أحوال العصر الذى

يكتب عنه. فعلى سبيل المثال لا يمكن لأى باحث يرغب فى دراسة جانب من تاريخ عصر النهضة فى ايطاليا أن يفهم ما يكتبه دون أن يلم بشىء مناسب من الثقافة الفنية التشكيلية أو المعمارية.

١١ ـ علم الاجتماع: Sociology

لا شك أن هذا العلم من العلوم المساعدة والضرورية للمؤرخ. فالصلة وطيدة بين التاريخ والاجتماع فكلا العلمين يهتم بدراسة الإنسان سواء فى الماضى أو الحاضر.

والمؤرخ لا تقتصر دراسته على النواحى السياسية والاقتصادية والدينية والحربية فحسب، ولكنه يتطرق أيضاً إلى النواحى الاجتماعية حيث يدرس «التغير الاجتماعى» أى دراسة حركة المجتمع داخل إطار الزمان. ومن الموضوعات التى يعنى بها كل من المؤرخ وعالم الاجتماع دراسة الطبقات الاجتماعية وما يطرأ على هذه الطبقات من تغير. وأخيراً فإن رجل الاجتماع يعتمد كثيراً فى الوصول إلى نتائجه على ما يقدمه له المؤرخ من خلفيات تاريخية.

١٢ ـ علم السكان:

وهو أحد العلوم التى ينبغى أن يهتم بها الباحث فى التاريخ، فهذا العلم يدرس أحجام الشعوب وتكوينها وتوزيعها الجغرافى وما يطرأ عليها من تغيرات من حيث المواليد أو الوفيات أو الهجرات. وقد تعطى الاحصاءات السكانية التى يعنى بها هذا العلم فائدة كبيرة للمؤرخ حيث تدون بها تفصيلات تفسر له كثيراً من النقاط التى يهتم بها من حيث سجلات الزواج والأمراض الاجتماعية فى الريف أو المدن ونسبة الذكور

إلى الإناث. ومن خلال ذلك كله يمكن أن يدرك المؤرخ العلاقة القائمة بين السكان وبين العوامل الأخرى المؤثرة فى الدوافع الإنسانية المحركة للأحداث التاريخية.

١٣ ـ علم الانثروبولوجيا (علم الإنسان) : Anthropology

وهو من العلوم القريبة جداً من التاريخ، فعلم الإنسان يهتم بثقافة الإنسان البدائى بينما يعنى المؤرخون أساساً بالإنسان عبر العصور التاريخية ولا شك أن النتائج التى يقدمها علماء الإنسان ذات فائدة كبيرة للمؤرخ فهى تساعده فى تفسير كثير من الوقائع التاريخية.

١٤ ـ علم النفس : Psychology

معروف أن علم النفس يهتم بدراسة جوانب النفس البشرية، ولما كان الفرد أو مجموعة الأفراد فى المجتمع هم الذين يصنعون التاريخ تحركهم عدة دوافع اقتصادية واجتماعية وسياسية ونفسية فقد وجب على المؤرخ أن يكون على علم بالنتائج والأبحاث التى يقدمها علم النفس لتفسير تلك الدوافع وخاصة فيما يتعلق بدراسة التراجم (السيرة الذاتية للفرد) المتعلقة بالقادة العظام.

ولا شك أن تفهم نفسية الشعوب بالنسبة للمؤرخ وخصوصاً تلك التى يتناولها بالدراسة تجعله يقدم للقارىء دراسة عميقة وصادقة لأنه دخل فى أعماق تلك الشعوب فى محاولة لتفسير الدوافع التى أدت إلى القيام بأعمالهم.

١٥ ـ العلوم السياسية : Political Sciences

لا يمكن للمؤرخ الحق أن يغض الطرف عن دراسة العلوم السياسية التى تهتم فى المقام الأول بدراسة الجماعات السياسية المؤثرة والعوامل

التى تكمن وراء صنع القـرارات وأسلوب الحكم والسلطة، بالإضـافـة إلى دراسة العوامل الحاسمة فى رسم السياسة العامة للدول وتنفيذها.

ويكاد أن يكون المجـال الذى يهـتم به كل من علم التـاريخ والعلوم السياسيـة متشابهاً، فقد كان التاريخ حتى وقت قريب يتمحور حول الأحداث السياسية، كما أن كثيراً من الأحداث المعاصرة والقريب جداً تجعل كلا من المؤرخ ورجل السياسة حريصين كل الحرص على الاهتمام بها للخروج بنتائج صادقة عنها.

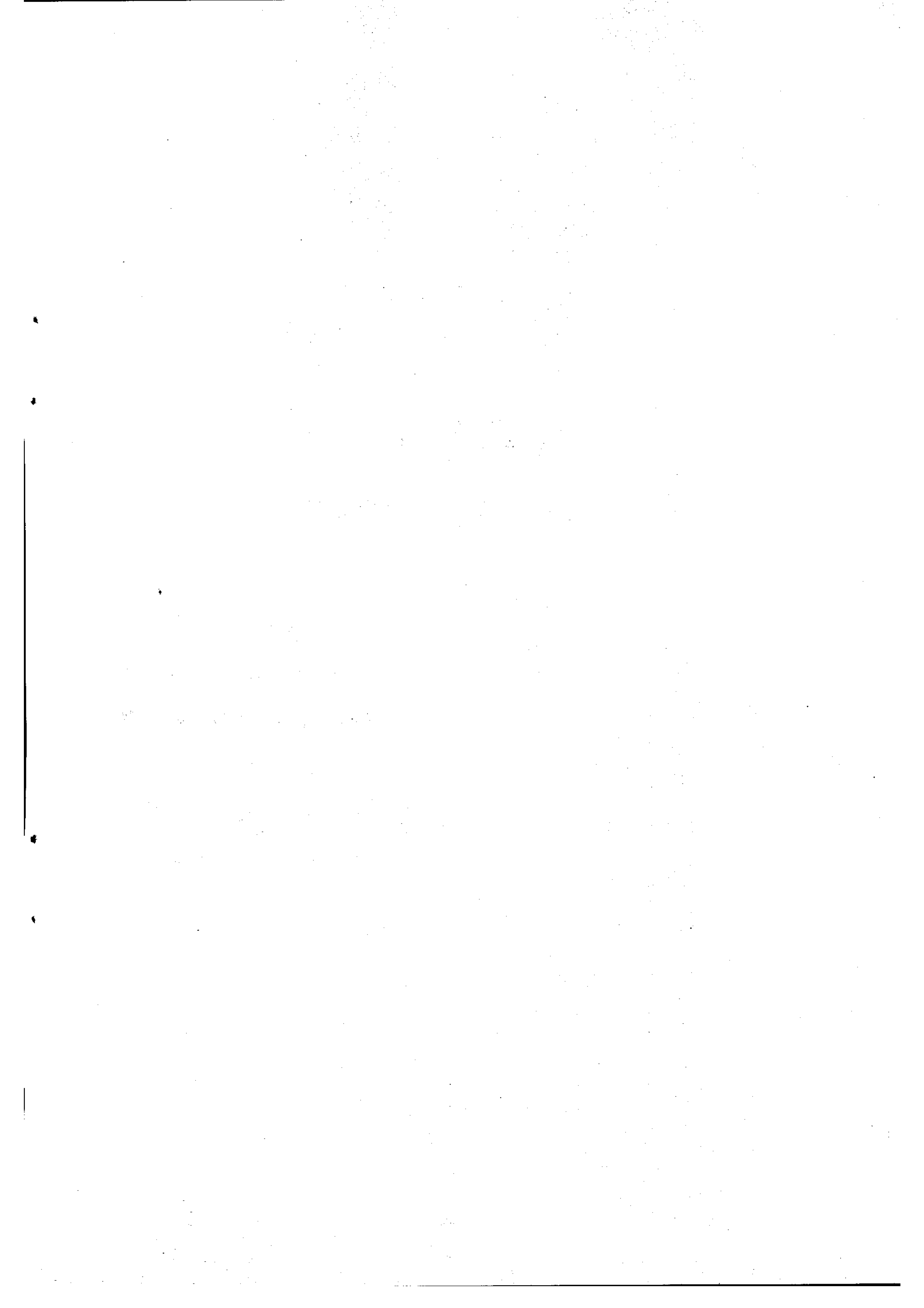
وهناك الكثيـر من الأمـور التى تعين المؤرخ على تفسيـر الوقـائع التاريخية كالسفر والترحال وخصوصاً إلى موقع الأحداث التى يكتب عنها إذ أن ذلك يعطيه تصوراً طيباً لكيفية وقوع الأحداث وتجعله يعيشها بشكل ما، ومن ثم تكون كتابته صادقة إلى حد كبير.

وأخيراً نشير إلى أنه ليس المقصود بذكر كافة هذه العلوم أن يتعمق فيـها الباحث فى التـاريخ فـهذا أمـر صعب المنال، ولكن عليـه أن يأخـذ بطرف منها يعينه فى أداء مهمته التاريخية حتى تخرج دراسته أقرب إلى الكمـال العلمى والحقـيقـة التـاريخيـة وهو مـا يرمى إليـه منهج البـحث التاريخى.

الفصل الثالث

خطوات البحث التاريخى

- إختيار الموضوع
- إعداد خطة أولية
- جمع المادة التاريخية
- النقد التاريخي
- الإثبات والتركيب التاريخي
- الكتابة التاريخية



لما كان التاريخ قد استقر كواحد من العلوم التى تسير وفق أسلوب البحث العلمى، كان لزاماً على الباحث فى التاريخ أن يمر بعدة مراحل أو خطوات وصولاً إلى الحقيقة التاريخية، ومن أهمها اختيار موضوع بحثه اختياراً دقيقاً، وإعداد خطة أولية للبحث قد تتغير بتغير المادة العلمية التى حصل عليها الباحث، ثم جمع المادة التاريخية من مظانها المتنوعة، ثم نقد هذه المادة نقداً علمياً دقيقاً، ثم الانتقال منها إلى مرحلة الإثبات والتركيب التاريخى، وأخيراً الوصول إلى مرحلة الكتابة.

وفيما يلى تفصيل لهذه الخطوات.

أولاً: اختيار الموضوع:

إن أولى خطوات البحث التاريخى هى مسألة اختيار الموضوع الذى يكتب فيه الباحث وهى مسألة نتوقف عندها كثيراً لأنها تتصل بميوله ومدى المامه بأدوات البحث التاريخى أو العلوم التى تساعده على السير فيه قدماً، ويوصى الكثيرون ممن تعرضوا للكتابة فى مجال البحث التاريخى بالتريث كثيراً عند هذه الخطوة، فقد يغرى أحد الموضوعات لأول وهلة بإمكان الباحث السير فيه، إلا أنه يفاجأ بعد برهة من السير فيه بندرة المادة العلمية التى تغطى جوانبه فيضطر إلى تركه والبحث عن غيره من الموضوعات الأخرى، وفى ذلك مضيعة للوقت والجهد. ومن ناحية أخرى لابد أن تنشأ منذ البداية علاقة حب بين موضوع البحث والباحث حتى لا يصاب بالملل خلال فترات البحث لأن مسيرة البحث طويلة وشاقة وهى أشبه بسباق الحواجز يحتاج خلالها الباحث إلى قوة وصبر وجلد.

ويختلف اختيار الموضوع من باحث إلى آخر، فطالب الجامعة المبتدئ لا يمكن مقارنته بطالب الدراسات العليا فى مرحلتى الماجستير والدكتوراه، كما أنه لا يمكن مقارنتهما بالمتخصصين من المؤرخين الذين أمضوا زمناً طويلاً فى هذا المعترك. فبالنسبة للطالب الجامعي يمكن أن يطلب مشورة أستاذه فى اختيار الموضوع، ولا بأس أن يكون موضوعه فضفاضاً فيه شيء من حرية الحركة، ويكفيه فقط أن يتعلم طريقة الاقتباس، وإعادة كتابة الموضوع من خلال تبويب جديد وعرض جديد معتمداً على المصادر والمراجع التى توصل إليها عن طريق الإرشادات التى تلقاها عن طريق أستاذه، ثم يجمع نقاط موضوعه عارضاً إياها بأسلوبه الخاص.

أما الإختيار بالنسبة لطالب الدراسات العليا فيختلف عما سبق حيث يكون الباحث هنا قد استوى عوده وأصبح قادراً على الاعتماد بنفسه فى اختيار موضوع بحثه دونما تدخل مباشر من أستاذه كى يحدد له موضوعاً بعينه، ويبقى دورا الأستاذ فقط عند مسألة ضبط الأمور المنهجية.

ولا ينبغى أن يفرض على الباحث موضوع بعينه، فقد يكون هذا الموضوع سهلاً ومقبولاً من لدن الأستاذ، كما أن نقاطه وأفكاره ربما تكون واضحة فى ذهنه، إلا أن الباحث مع ذلك كله ليست لديه ميول تجاه هذا الموضوع الأمر الذى يجعله يتعثر فى المضى قدماً ويضطر إلى تغييره. كذلك فمن المفيد حقاً أن يسأل الباحث نفسه عما إذا كان هذا الموضوع الذى اختاره يستحق أن يمضى فيه سنوات طوال، وهل يمكن أن يأتى فيه بجديد؟ وهل سبقه أحد إلى دراسته؟

ومن الأمور التى يجب مراعاتها عند اختيار البحث ضرورة اختيار نقطة أو فكرة صغيرة لدراستها بعمق والاتيان من خلاله بجديد. كذلك

فعلى الباحث أن يحدد الفترة الزمنية لموضوعه من ناحية نقطة البداية ونقطة النهاية بحيث لا تكون هذه السنوات عشوائية بل ينبغى أن تكون لها دلالات معينة بالنسبة للموضوع، كأن تكون مثلاً تاريخ الميلاد أو الوفاة، أو تاريخ تولى الحكم وذلك بالنسبة للشخصيات الحاكمة أو غيرها من التراجم أو تكون ذات دلالات اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية حدثت فيها تحولات كبرى بحيث يمكننا أن نتخذ منها نقطة انطلاق أو توقف.

ويقع البعض فى خطأ كبير حين يختار عناوين عامة لموضوعه مثل (نظرات فى التاريخ الافريقى) أو (ملامح من تاريخ آسيا)، فمثل هذه العناوين لا تصلح البتة لأبحاث علمية أكاديمية نظراً لما تتسم به من السطحية والعمومية بحيث لا تدع للباحث أن يأتى من خلالها بجديد، بل ينبغى أن يكون موضوعه أصيلاً Original حتى يمكنه أن يضيف شيئاً إلى العلم فى مجال البحوث التاريخية وإلا فما جدوى كل هذه المتاعب.

وعلى الباحث عند اختيار موضوع بحثه أن يترك فاصلاً زمنياً بين الزمن الذى وقعت خلاله أحداث موضوعه الذى يكتب عنه وبين الزمن الذى يعيشه الباحث أو يكتب خلاله البحث، وقد حددت هذه الفترة أخيراً بثلاثين عاماً حتى يمكن الاطلاع على الوثائق التى أفرج عنها لتغطية جوانب موضوعه، وفى ذات الوقت يبتعد الباحث عن كافة المؤثرات الخارجية التى تمس موضوعه.

ثانياً: إعداد خطة أولية:

بعد أن يفرغ الباحث من اختيار موضوعه تأتى الخطوة التالية والتى تتمثل فى إعداد خطة أولية لبحثه، وهذه الخطة أو التبويب الأولى يحسن أن يكون بعد قراءة سريعة لجوانب موضوعه، مع ملاحظة أن هذه الخطة

ليست نهائية بل قابلة للتغيير طبقاً للمادة التى سوف يحصل عليها أثناء مرحلة جمع المادة، لكن على الباحث ألا يمس عنوان البحث الرئيسى بأى تغيير رئيسى.

وتشمل الخطة الأولية عدة جوانب ينبغى أن يوضحها الباحث مثل موضوع البحث، والأسباب التى دعته لأن يختار هذا الموضوع كأن يكون - مثلاً - موضوعاً جديداً لم يتطرق أحد إلى دراسته، أو لندرة الكتابة حوله، أو أن الكتابات التى تناولته لم تكن قد وفته حقه. ثم يقوم الباحث بعمل فصول لبحثه، أو أبواب تنقسم إلى عدة فصول، ثم يختتم هذا التقسيم بقائمة لأهم المصادر والمراجع التى ينبغى الاطلاع عليها.

وفيما يلى أنموذج لخطة بحث:

حزب الأمة السودانى

(١٩٤٥ - ١٩٦٩)

تمهيد: خريطة الأحزاب السياسية والكتل الإقليمية فى السودان.

الفصل الأول: نشأة حزب الأمة.

الفصل الثانى: الحزب بين الاستقلال ووحدة وادى النيل.

الفصل الثالث: حزب الأمة والقضايا الداخلية والخارجية.

الخاتمة.

المصادر والمراجع.

ثالثاً: جمع المادة التاريخية:

وفى هذه المرحلة يشرع الباحث فى جمع مادته العلمية من كافة مظانها والتى تتمثل فى الوثائق غير لمنشورة والمنشورة، والمصادر

والمراجع، والدوريات، والمذكرات بكافة أشكالها وغير ذلك. ومن الأفضل في مستهل هذه المرحلة أن يقوم الباحث بالاطلاع على كتب المراجع Bibliographies لأنها تحوى قوائم عديدة للكتب فى كل فرع من الفروع، وتأتى قيمتها فى أنها تطلع الباحث على آخر ما كتبه السابقون حول موضوعه الذى يتناوله بحيث تجعله يبدأ من حيث انتهوا حتى يضفى على بحثه نوعاً من الجديد وينأى عن التكرار وإلا فما القيمة العلمية وراء بحثه إن حاول تكرار ما كتبه السابقون.

وتتنوع المادة العلمية التاريخية التى يقوم الباحث بجمعها من وثائق Documents سواء أكانت منشورة أو غير منشورة، إلى مخطوطات ومذكرات، ومراجع References ودوريات Periodicals تصدر كل يوم أو كل أسبوع أو شهر أو عام، وهى تمد الباحث بمادة غزيرة لا غنى عنها. وتصدر كثير من الهيئات والمؤسسات والجامعات العديد من المجلات العلمية المحكمة والتى كتبت بأقلام متخصصة وأشرف عليها أساتذة متخصصون سواء فى مصر أو العالم العربى أو خارج هذه المنطقة العربية.

ومع تطور العلم الحديث لجأ الباحثون توفيراً للوقت والجهد إلى (الإنترنت) للحصول على مادة علمية حديثة وسريعة. كذلك يلجأ الباحثون أحياناً إلى إجراء مقابلات شخصية مع بعض الأفراد الذين لا يزالون على قيد الحياة ممن عاشوا أو شاركوا فى صنع جانب من أحداث موضوعه. كل هذه الصنوف من المادة العلمية تعطى موضوعه شيئاً من الزخم التاريخى فى محاولة لكشف الحقيقة أو الاقتراب منها.

وهناك طريقتان لجمع المادة العلمية التاريخية، الطريقة الأولى: طريقة البطاقة (الكارت) أو (الفيشة). وهى تصنع من الورق المقوى،

ومتعددة الأحجام، لكن على الباحث أن يختار حجماً معيناً وثابتاً يسير عليه حتى نهاية جمع المادة.

وهناك عدة ملاحظات ينبغى على الباحث أن يراعيها وهو يجمع مادته على البطاقات، فعليه أن يكتب على وجه واحد فقط، وأن يكتب فى أعلاها: اسم المؤلف، واسم الكتاب، ورقم الجزء، والطبعة ومكان وتاريخ النشر. كما يجب على الباحث أن يضع عناوين جانبية لكل اقتباس أو مادة علمية يجمعها مع ذكر رقم الصفحة، ومن الأفضل لو كتبت هذه البيانات الأخيرة (المصدر، والعناوين الفرعية بمداد يختلف لونه عن المداد الذى كتب به المتن.

وهذا نموذج لبطاقة:

عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الرابع، طـ١، مصر، ١٨٨٩م.	
نفى عمر مكرم	... ...
ص١٤ ...	... ...
...	... ...

وإذا ما أراد الباحث أن يكتب تعليقاً فيكون فى أسفل البطاقة وبلون مختلف ليسهل التفرقة بين التعليق وبين المادة التى اقتبسها على أن يسبق ذلك بكلمة تعليق. وينبغى على الباحث أن يقوم بجمع كل ما يتصل بموضوعه من تفصيلات قد يراها خارجة عن موضوعه فربما يحتاج إليها فى وقت لا يسهل الرجوع إليها.

أما الطريق الثانية فهى طريقة الدوسيه المقسم، وهو عبارة عن غلاف من الكرتون له كعب فيه حلقتان يمكن فتحهما وغلقهما، ثم يؤتى بأوراق مثقوبة توضع فى هاتين الحلقتين بحيث يضيف الباحث ما يشاء من أوراق.

ويقسم الدوسيه حسب خطة الموضوع إلى عدة أقسام: القسم الأول مثلاً للمقدمة، والثانى للفصل الأول والثالث للفصل الثانى... وهكذا حتى القسم الأخير الذى يخصص لقائمة المصادر. وتوضع ورقة بين كل قسمين من نوع سميك لها لسان بارز، ويكتب على كل لسان عنوان الفصل المواجه للكتابه، وعلى ظهر اللسان عنوان الفصل الآخر حتى يتسنى فتح الدوسيه فى أى وقت وبسهولة عند الفصل المطلوب. وكلما يعثر الباحث على نقطة تخص موضوعه يكتبها فى القسم الخاص بها من الدوسيه مع ملاحظة تقسيم أوراق كل فصل إلى مجموعات. وعموماً فكثير من الباحثين لا يفضلون طريقة الدوسيه المقسم بل يميلون إلى جمع المادة العلمية من خلال البطاقات لسهولة حركتها.

وطالما تعرضنا لمرحلة جمع المادة التاريخية وتعرفنا على كيفية جمعها فعلينا أن نعرف مظانها الموجودة فيها من دور وثائق ومكتبات حتى يفيد منها الباحثون.

وفى هذا الصدد سوف نعرض لأهم الأرشيفات التى يمكن أن يفيد منها الباحث المصرى خاصة والعربى بشكل عام، كالأرشيفات الفرنسية، والبريطانية، والعثمانية ودار المحفوظات العمومية بالقاهرة، ودار الوثائق القومية بكورنيش النيل بالقاهرة.

١ - الأرشيفات الفرنسية:

يعود الفضل فى إنشاء الأرشيف الفرنسى إلى الثورة الفرنسية، فعلى الرغم من أنها أحرقت ودمرت الكثير من مخلفات الإقطاع إلا أنها جمعت فى مكان واحد معظم الوثائق الفرنسية وأتاحت بذلك الفرصة للشعب الفرنسى وللباحثين كى يفتشوا فى الماضى بعد أن حرمهم الإقطاع ذلك.

وقد كانت الوثائق الفرنسية قبل الثورة فى حوزة جهات متعددة بلغت حوالى عشرة آلاف مركز، ثم بادر رجال الثورة إلى العناية بالوثائق وتنظيمها، فبدأت العناية بوثائق الجمعية التأسيسية، ففى ١٢ سبتمبر عام ١٧٩٠ صدر قانون بتحويل أرشيف الجمعية التأسيسية إلى الأرشيف القومى الذى جرى تنظيمه بمقتضى المرسوم الصادر فى ٢٥ يونيه عام ١٧٩٤ وهو المرسوم الذى جعل الإطلاع على الوثائق من حق كل مواطن.

وفى عام ١٨٠٨ أصدر نابليون مرسوماً يقضى بالإستيلاء على فندق سوبيز HotelSoubise وأودع به الأرشيف القومى بعد أن كان اللوفر مقراً له من قبل. وكان لدى نابليون طموح كبير فى تجميع كافة الوثائق الفرنسية، فقد أراد مدير الأرشيف القومى فى عهده وكان يدعى (دانو) Daunou أن يضم إلى هذه المؤسسة القومية جميع وثائق الأقاليم، كما أراد نابليون أن يجعل من دار الوثائق القومية الفرنسية أرشيفاً لأوربا كلها يفد إليه الباحثون من جميع الدول الأوربية، لذلك راح يزود هذا الأرشيف بوثائق من أسبانيا وألمانيا وبلجيكا، كما سافر إلى الفاتيكان لنقل الكثير من الوثائق.

والجدير بالذكر أنه قبل عام ١٧٩٧ كانت دور الوثائق الفرنسية سواء دار الوثائق القومية أو دور الوثائق المحلية تحت إشراف وزارة الداخلية حتى عام ١٨٨٤ ثم انتقل الإشراف عليها إلى وزارة المعارف، ثم نقلت الإدارة التى تشرف على دور الوثائق الإقليمية إلى مقر الأرشيف القومى بمقتضى مرسوم ٢٣ فبراير عام ١٧٩٧ وبذلك تكونت إدارة الأرشيفات الفرنسية، وأصبح مدير الأرشيف القومى يطلق عليه اسم مدير الأرشيفات Directeur des Archives، ثم بمقتضى مرسوم ٢٨ ديسمبر عام ١٩٣٦ أصبح يسمى مدير أرشيفات فرنسا Directeur des Archives de France.

أما أهمية الأرشيف الفرنسى العلمية والتاريخية فتتمثل فى أنه يحوى الكثير من الوثائق التى تهم الباحث العربى بشكل خاص ولاسيما فيما يتعلق ببلدان شمال افريقيا العربية مثل تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا، وفى ذات الوقت وبشكل عام يمثل أهمية بالغة للباحث فى تاريخ افريقيا الحديث، ذلك أن فرنسا قد احتلت هذه البلدان العربية فى شمال افريقيا بالإضافة إلى بلدان كثيرة فى افريقيا وفرضت عليها نظام الحكم المباشر وطبقت فيها جميعاً أسلوب الفرنسة فتغلغل الفرنسيون داخل مجتمعات هذه البلدان وأصبحت اللغة الفرنسية لغة الحياة اليومية فى التعامل فى المتجر والمصنع والمدرسة، وأصبحت أيضاً لغة الإدارة بما تحمل من مكاتبات رسمية أصبحت وثائق هامة يستخدمها المؤرخ فى صياغة الأحداث التاريخية. وعلى هذا النحو أصبح من الضرورى لمن يروم دراسة تاريخ دول شمال افريقيا خاصة ودول افريقيا عامة والتى خضعت للاستعمار الفرنسى أن يطلع على أوراق الأرشيف الفرنسى الذى يضم آلاف الأوراق المتعلقة بهذه الدول.

٢ - الأرشيفات البريطانية:

ظلت المكتبات في بريطانيا طوال العصور الوسطى مكاناً يضم الوثائق بالإضافة إلى ما كانت تحويه من كتب، كما كانت مكتبات الأديرة هى الأخرى مكاناً آمناً لحفظ الوثائق إلا أنه بعد أن حلت هذه الأديرة تشتت الوثائق وأصابها التلف.

وترجع فكرة جمع الوثائق فى بريطانيا إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر حين قام بعض المفكرين أمثال السير روبرت كوتن Cotton وجون ديل John Dale بتجميع المخطوطات والوثائق، كما تقدم الرياضى جون دى Dee إلى السلطات بطلب للمحافظة على الوثائق من الضياع وصيانة هذا التراث.

وفى عام ١٨٠٠ شكلت لجنة فى مجلس العموم لبحث حالة الوثائق التى تقدمت بتقريرها فى الرابع من يوليو من نفس العام يتضمن وجهة نظرها حول هذا الموضوع من حيث الفهارس والمبانى والطباعة، ثم تشكلت بعد ذلك لجنة الوثائق The Record Commission التى قدمت ثلاث تقارير فى أعوام ١٨١٢، ١٨١٩، ١٨٣٧ حددت من خلالها أماكن الوثائق وقامت بوصف محتوياتها . وفى عام ١٩٣٦ قامت لجنة من مجلس العموم بتقديم تقرير عن الوثائق كان محور أبحاثها تجميع الوثائق فى مكان واحد، لكن يبدو أن تركيزها كان منصباً على الوثائق الحكومية دون وثائق الهيئات الإقليمية.

ومن أهم القوانين التى نظمت إيداع الوثائق فى انجلترا قانون ١٤ أغسطس عام ١٨٣٨ الذى قرر أن وثائق الدولة كلها ينبغى أن تكون تحت

إشراف قاضى القضاة Master of the Rolls الذى كان يقوم بإصدار الأوامر Warrants إلى المحاكم وغيرها وإرسال المندوبين لتسلم هذه الوثائق التى مضى عليها عشرون عاماً على الأقل إلا إذا رأت السلطات القضائية المختصة رأياً آخر.

ومن أهم مواد هذا القانون النص على إنشاء دار المحفوظات البريطانية Public Record Office تحت إشراف قاضى القضاة، وأصبحت هذه الدار ذات صفة قانونية وصارت وثائقها مستندات قانونية يعتد بها أمام المحاكم. وقد وضع الحجر الأساسى لهذه الدار فى ٢٤ مايو عام ١٨٥١ . والجدير بالذكر أن قانون ١٤ أغسطس عام ١٨٣٨ نص على تحديد أنواع الوثائق على النحو التالى:

"Rolls, records, Writs, books, Proceedings, decrees, warrants, bills, accounts, etc....

أما عن أهمية الوثائق المودعة بالأرشيف البريطانى بالنسبة للباحث العربى فتعود إلى أن بريطانيا احتلت كثيراً من الأقطار العربية لسنوات طويلة وشاركت فى صنع كثير من أحداث ومصائر هذه البلدان، وتركت بالتالى آثاراً سياسية واقتصادية بل واجتماعية لا تزال تعمل عملها حتى الآن فى البلاد العربية، لذا وجب على الباحثين فى تاريخ البلاد العربية والعلاقات العربية البريطانية الرجوع إلى كثير من الأوراق والتقارير التى كتبت من جانب المسئولين البريطانيين وأودعت فى دار المخطوطات البريطانية إذ أنه دون الرجوع إلى هذه الوثائق تصبح الحقيقة التاريخية مبتسرة ولا يمكن كتابتها من طرف واحد. فعلى سبيل المثال لا يمن لأى دراسة تاريخية تتعرض لتاريخ مصر الحديث ـ منذ عام ١٨٨٢ وهو العام

الذى احتلت فيه بريطانيا مصر وحتى عام ١٩٥٦ الذى جلت فيه القوات البـريطانيـة عن أرض مـصـر ـ دون الرجـوع إلى أوراق دار المحـفـوظات البريطانية لمعرفة وجهة النظر البريطانية وإجراء مقارنة بينها وبين رؤية الوثائق المصرية والخروج برأى علمى دقيق. وهكذا الحال بالنسبة لبقية البلدان العربية الأخرى.

وفيما يتعلق بمصر ومنطقتنا العربية يمكن أن نجد وثائقها تحت العناوين الآتية:

١ ـ سجلات وزارة الخارجية البريطانية: Foreign Office (F.O)

٢ ـ سجلات وزارة المستعمرات: Colonial Office (C.O)

٣ ـ الأوراق السرية والخضراء: Secret & Green Papers

٤ ـ أوراق مجلس الوزراء البريطانى: Cabinet Office Records

٥ ـ الأوراق والمراسلات الخاصة:

Private Papers & Special Corrsepondence

٦ ـ سجلات وزارة الهند: India Office Recerds (I.O)

وهذه السجلات الأخيرة تخص منطقة الخليج وجنوب شبه الجزيرة العربية وتحوى الآتى:

أ ـ وثائق شركة الهند الشرقية البريطانية وسجلات الوكالات التابعة لها.

ب ـ وثائق المكتبة السياسية والسرية Political & Secret Library.

جـ ـ المذكرات السياسية والسرية:

Political & Secret Mémoranda

د ـ وثائق القسم السياسى والسرى لوزارة الهند:

Political & Secret Department

هـ ـ المراسلات والأوراق الخاصة:

Special Correspondence & Private Papers

وهناك مجموعات وثائقية أخرى تحت عناوين متعددة تفيد الباحث العربى فى مصر والسودان ومنطقة الخليج العربى فى الاستفادة من الوثائق البريطانية تحت عناوين وأرقام معينة. فعلى سبيل المثال فإن الدارس للاقتصاد المصرى خلال الحربين العالميتين مطالب بأن يطلع على المراسلات التجارية والقنصلية Commercial &Consular Correspondence وهى تتناول تقارير ومراسلات صادرة من غرفة التجارة البريطانية فى مصر إلى وزارة الخارجية البريطانية، ومن الشركات الاستثمارية البريطانية بمصر تتعلق بنشاطها الاقتصادى فى مصر. وهناك أيضاً المراسلات السياسية Political Correspondence وهى تحوى مراسلات وتقارير متبادلة بين المندوب السامى البريطانى والخارجية البريطانية فيما يتعلق بالتبادل التجارى بين مصر وبريطانيا بالإضافة إلى تقارير عن أوضاع الاقتصاد المصرى.

والجدير بالذكر أنه قد ادخلت فى الآونة الآخيرة الكثير من الأجهزة العلمية الحديثة بدار المحفوظات البريطانية فى محاولة لمساعدة الباحثين للاطلاع على الوثائق وتصوير ما يحتاجون إليه فى يسر فى إطار المدة الزمنية التاريخية المسموح بها والتى تقضى بمرور ثلاثين عاماً من تاريخ إصدار الوثيقة.

٣ - الأرشيفات التركية:

لما كانت الدولة العثمانية قد بسطت حكمها على مناطق شاسعة فى أوربا وآسيا وافريقيا، لذا فإن معرفة الوثائق الخاصة بهذه الامبراطورية الواسعة التى امتدت أكثر من أربعة قرون يعتبر أمراً هاماً وضروزياً للباحثين سواء فى مصر أو العالم العربى أو الأوربى.

وقد اتخذت الحكومة التركية خطوات هامة فى حفظ وفهرست الوثائق منذ ثلاثينيات القرن العشرين حين استدعى وزير الثقافة التركى (صفوت اريقا) عالم الوثائق المجرى (فكته) عام ١٩٣٧ كى يطلع الأتراك على أحدث الوسائل لحفظ الوثائق وتصنيفها. وقد تخرج على يديه عشرة أفراد فى هذا المجال تولوا شئون الأرشيف التركى فى أنحاء تركيا.

وفيما يلى عرض لأهم الأماكن التى ضمت الوثائق العثمانية فى تركيا:

١- أرشيف متحف طوب قبو سراى:

عثرت الحكومة التركية فى عهد الجمهورية على ستة وسبعين صندوقاً من مخلفات السلاطين العثمانيين أودعت مكتبة متحف طوب قبو سراى فى استانبول، ثم خصص لها بعد ذلك مبنى مستقلاً عام ١٩٣٧ وضمت إليها وثائق وزارتى التجارة والخارجية.

ويحتوى أرشيف طوب قبو سراى على أكثر من مائتى ألف وثيقة بين دفتر وورقة محفوظة ومصنفة على أحدث طريقة للحفظ. ويوجد للأرشيف دليل يقع فى ١٩٢ صفحة مكون من جزئين فى مجلد واحد ترتب فيه الأسماء والموضوعات فى عمودين حسب الترتيب الأبجدى.

ويحوى هذا الأرشيف العديد من الوثائق المتعلقة بالسلاطين والأمراء، والصدور العظام، وشيخ الإسلام، وقادة الجيش، والد فتردار، وكبار الكتاب والخطاطين والمدرسين، ومحافظى القلاع، والقضاة، والجوامع، وشيخ الحرم، والروزنامجى، وكاتب السر، وباكوات الأناضول والروملى، والمتصرفين، والولاة، والضربخانة، والعائدات، ومتولى الأوقاف، والجمرك، وأمير الحج، والسفراء، والهدايا، والجواسيس وتقاريرهم، والأسرى واستجوابهم، وجواسيس الأعداء، وقصائد مدح السلطاين والتبريك بالجلوس على العرش، والحروب والمعاهدات، والخزينة وبيت المال، وعيون الماء وأوقافها، ومخازن الأسلحة، وتقارير السفراء وكبار رجال الدولة، والحرمين الشريفين، وخرائط الحروب والمعارك، والحجج، والحسابات والأسطول العامر، والمراسم، والنياشين والبحرية، والرواتب.

٢ ـ الأرشيف العام لرئاسة الوزراء:

ويعد هذا الأرشيف من أهم الأرشيفات فى تركيا إذ يضم أعداداً هائلة من الوثائق تصل إلى الملايين وتتنوع بين دفاتر وأوراق.

وقد ألحق للعمل فى هذا الأرشيف نخبة من الخبراء والعاملين فى الخطوط والوثائق ممن يجيد بعضهم قراءة خطوط القيرمة وخط السياقة. وهناك أعداد لا بأس بها من الباحثين من كافة أرجاء العالم لاسيما من أوربا وأمريكا واليابان تأتى إلى هذا الأرشيف للإطلاع على وثائقه لاسيما المتعلقة بالشئون المالية والإدارية ونظام الأراضى الذى كان سائداً فى الدولة العثمانية.

ويقع هذا الأرشيف بجوار حديقة الكلخانة وحديقة الحيوانات باستانبول. والجدير بالذكر أن هذا الأرشيف وإن كان يتبع مباشرة رئاسة الوزراء إلا أن وزارة الثقافة هى التى تمنح تصاريح الإطلاع على وثائقه.

ويحتوى أرشيف مجلس الوزراء على ثلاثة فروع خاصة بالتشكيلات المركزية للدولة العثمانية وهى:

١ ـ الديوان السلطانى وأقلامه.

٢ ـ ديوان الوزارة وأقلامه.

٣ ـ الديوان الدفترى وأقلامه.

١ـ الديوان السلطانى وأقلامه:

ويشبه فى وقتنا الحاضر مجلس الوزراء، وكان يبحث شئون الدولة العثمانية من جوانبها السياسية والإدارية والمالية والعسكرية، كما كان يتلقى الشكاوى المقدمة إليه ويقوم بالنظرى فيها. ولهذا الديوان عدة فروع أهمها:

أ ـ دفاتر الرسائل السلطانية، ويتضمن الرسائل المتبادلة بين السلاطين والوزراء من كبار رجال البلاد الخاضعة للدولة العثمانية مثل رسائل أمراء مكة التى تنحصر بين عامى ١٦٦٩، ١٩١٧م (١١١١ ـ ١٣٣٦هـ).

ب ـ دفاتر المهمات: وهى دفاتر تضم الفرمانات المتعلقة بشئون كل الدول التابعة للدولة العثمانية وتبدأ من سنة ١٥٥٣ إلى سنة ١٨٦٩م (٩٦١ـ ١٣٢٣هـ) وتحوى هذه الدفاتر وثائق تتعلق بمصر والبلاد العربية.

جـ ـ مهمات مصر ودفاترها السرية: وهى عبارة عن الدفاتر التى قيدت فيها الفرمانات الصادرة بشأن المسائل المصرية وعددها

١٤ دفتراً تغطى الفترة من ١١١٩ ـ ١٣٣٠هـ (١٨٤٠ ـ ١٩١٤م).

د ـ دفاتر الأحكام: وهى دفاتر الشكاوى لكل ولاية وتغطى الفترة من ١٧١٥ إلى ١٨٣٩م، وتحوى وثائق عن الشام وحلب والجزائر وبلغ عدة دفاترة الشام تسعة دفاتر تشمل الفترة من ١١٥٥ ـ ١٣٢٦ (١٧٤٢ ـ ١٩٠٨)، كذلك فقد بلغت دفاتر حلب تسعة دفاتر أيضاً تغطى الفترة من ١١١٥ ـ ١٢٩٨هـ (١٧٤٢ ـ ١٨٧٨م)، وأما دفاتر الجزائر فعددها ثلاثة وعشرون دفتراً.

٢ـ ديوان الوزارة وأقلامه:

فقد الديوان السلطانى أهميته وحيويته حين دب الضعف فى أوصال الدولة العثمانية وانتقلت أعماله بالتدريج إلى ديوان الوزارة وأقلامه. وقد ضم هذا الديوان إرادات تتعلق ببعض الولايات بعد عهد التنظيمات ١٨٣٩ كولايات اليمن وصيدا وبغداد وحلب والشام ومصر وكربلاء وتونس.

٣ـ الديوان الدفترى وأقلامه:

كانت مهمة هذا الديوان رعاية الشئون المالية للدولة العثمانية وكان يرأسه الدفتردار يعاونه موظفون متخصصون فى الشئون المالية.

وقد ضم هذا الديوان وثائق عن الأملاك والتركات والترسانة والمدفعية والمطبخ العامر ومصانع الذخيرة والموقوفات والمنقولات والغنائم والوردات والقلاع وحسابات الحرمين الشريفين والجزية والأوقاف.

ثالثاً: أرشيف المديرية العامة للأوقاف:

يقع هذا الأرشيف فى أنقرة، ويحتوى على ٢٣٠٠ دفتر تتعلق بشئون الأوقاف المختلفة منها ١٥٠٠ وثيقة باللغة العربية والبقية الأخرى بالتركية.

أما أنواع الوقفيات التى شملها هذا الأرشيف فبعضها يخص سلاطين المماليك وأمرائهم، ومنها ما هو للسلاطين العثمانيين وكبار رجال الدولة العثمانية. وتجدر الإشارة إلى أن بعضاً ممن يعملون فى هذا الأرشيف من خريجى جامعة الأزهر الشريف الذين يجيدون قراءة الخطوط العثمانية.

رابعاً: أرشيف المديرية العامة للمساحة وعقود التمليك:

يقع هذا الأرشيف فى أنقرة، ويحتوى على مجموعة من الوثائق تخص العصر المملوكى والعثمانى تتعلق بالأراضى من حيث مساحتها وملتزميها ومتسلميها، وخرائط للأراضى والترع والقنوات والأنهار والعقارات. وهناك وثائق داخل هذا الأرشيف تتعلق ببعض المناطق فى البلاد العربية مثل بغداد والبصرة وحمص والشام وطرابلس الشام وغزة وكركوك والموصل.

ويضم هذا الأرشيف ٢٣٢٢ وثيقة أكثرها من الدفاتر الخاصة بالأراضى التركية، وأعقاب الحرب العالمية الأولى قامت الحكومة التركية بتسليم أعداد كبيرة من الدفاتر لأصحابها من الدول التى كانت تحت الحكم العثمانى.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك أماكن أخرى توجد بداخلها وثائق عثمانية فى تركيا مثل بعض دور المحاكم ودور الكتب وبعض المحافظات.

وهكذا نرى من هذا العرض لأهم أماكن حفظ الوثائق المتعلقة بالدولة العثمانية أنه لاغنى لمن يروم دراسة الفترة الزمنية الممتدة من أوائل القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن العشرين أن يطلع على هذه

الوثائق التى حواها الأرشيف التركى لاسيما وأن البلاد العربية فى هذه الفترة كانت خاضعة للحكم العثمانى.

أما دور الوثائق الخاصة بتاريخ مصر فهى على النحو التالى:

١ـ دار المحفوظات العمومية بالقلعة:

يقع مقر دار المحفوظات ولا يزال منذ نشأتها بالقلعة وكانت تسمى فى بدايتها بالدفترخانة، وقد تم هذا الإنشاء فى عهد محمد على أواخر عام ١٢٤٤هـ (١٨٢٩م). وفى عام ١٨٦٣ على عهد الخديوى إسماعيل كانت أقسام دار المحفوظات تنقسم إلى:

١ ـ القسم التركى.

٢ ـ قسم الأقاليم والجفالك.

٣ ـ قسم الدواوين.

وفى عام ١٩٠٥ حين فصلت الدفترخانة عن الداخلية والحقت بنظارة المالية قسمت على الأقسام الآتية:

١ ـ قسم الاستلام محفوظات بحرى والمحافظات.

٢ ـ قسم الوجه القبلى.

٣ ـ قسم الوزارات والمصالح.

٤ ـ قسم المستخدمين.

ومنذ عام ١٩١٣ لم تعد هذه الأقسام تتسلم المحفوظات بل انشئ قسم لتسلم ما يرد للدار حيث يجرى تسجيله وتسليمه للقلم المختص.

وتضم الدار الأقسام الآتية:

١ ـ قسم التسجيل والحفظ ٢ ـ قلم المواليد والوفيات والقرعة

٣ ـ قلم مباحث بحرى ٤ـ قلم مباحث قبلى

٥ ـ قلم مباحث الوزارات ٦ ـ قلم المباحث المتنوعة

٧ ـ قلم الإدارة ٨ ـ القلم التركى

٩ ـ القلم الافرنجى.

ويجدر أن نشير إلى أن هذه الدار تضم وثائق ذات أهمية كبيرة فى تاريخ مصر ومن أهمها وثائق ديوان السراى (١٥٤١م ـ ١٨٢٨م)،... وثائق الجهادية (١٨٦٣م ـ ١٨٨٢م)، تقاسيط الالتزام (١٨٠١ ـ ١٨٨٢)، تقاسيط الرى (١٨١٢ ـ ١٨٤٨م)، وثائق خاصة بالسودان .

كذلك تجدر الإشارة إلى أن بعض الوثائق التى كانت مودعة بهذه الدار قد نقلت أخيراً إلى دار الوثائق القومية بالقلعة، ومنها على سبيل المثال الوثائق التى كانت مودعة بمخزن السودان.

٢ـ دار الوثائق القومية بكورنيش النيل:

تم إنشاء هذه الدار فى عام ١٩٥٤ حيث نقلت إليها الوثائق التى كانت مودعة بالقصر الملكى. وتحوى هذه الدار أعداداً كبيرة وقيمة من الوثائق التاريخية التى تهم الباحث فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر وعلاقتها بالعالم وخصوصاً منذ القرن التاسع عشر حيث امتد هذا النشاط الخارجى منذ عهد محمد على وخلفائه. وتتعدد اللغات التى كتبت بها الوثائق إلى اللغات العربية والعثمانية التركية، والانجليزية والفرنسية وغيرها، وإن كانت هناك أعداد كبيرة من الوثائق المكتوبة بالخط العثمانى قد ترجمت إلى اللغة العربية مما سهل على الباحثين الكثير من العناء.

ومن أهم الوثائق التى تحويها الدار ما يلى:

- دفاتر وسجلات المعيبة (عربى): وهى عبارة عن المكاتبات العربية بين المعية والأقاليم والدواوين.
- دفاتر وسجلت المعية (تركى): وهى عبارة عن المكاتبات التركية بين المعية والأقاليم والدواوين.
- دفاتر الأوامر: وهى عبارة عن الأوامر الصادرة إلي الجهات، وبعضها بالخط العثمانى والآخر باللغة العربية.
- مجموعة الفرمانات الشاهانية وهى عبارة عن الفرمانات التركية الصادرة إلى ولاة مصر.
- سجلات الجهادية: وهى عبارة عن المكاتبات المتبادلة بين نظارة الجهادية وبين القادة العسكريين، كما أنها تضم الوثائق المتبادلة بين المعية ونظارة الجهادية.
- الملفات الخاصة: وهى عبارة عن الأوراق التى تضم كافة المعلومات المتعلقة بشخص ما كان يعمل فى وظائف الحكومة، كما أنها تضم معلومات عن أماكن معينة.
- محافظ بحربرا : وهى عبارة عن الوثائق الخاصة بالبلاد الأجنبية كما يشير اسمها.
- محافظ تحت عنوان السودان (مجلس الوزراء) ويبلغ عددها حوالى ٢٦ محفظة تتعلق بموضوعات مختلفة عن السودان فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والإدارية وغيرها فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وهذه المحافظ لا تحمل أرقاماً، بل لكل

محفظة عنوان خاص بها مثل السودان (موضوعات)، السودان (سكة حديد)، السودان (ديوان السودان)، السودان (اعتماد ميزانية)، السودان (شئون موظفين)، السودان (شئون عسكرية - الثورة المهدية)، السودان (رقيق).

- سجلات مديريات السودان: وتضم هذه السجلات المراسلات المتعلقة بكل مديرية، فقد كان لكل مديرية سجلاتها الخاصة. ويمكن للباحث أن يتتبع تطور أوضاع كل مديرية من خلال هذه الدفاتر.

- سجلات حكمدارية السودان: وهى تضم الأوامر والمراسلات والتوجيهات التى كان يصدرها الحكمداريون إلى المديريين وحكام الأقسام والأخطاط والتى كانت تتعلق بكافة الشئون الاقتصادية والإدارية وكافة القضايا التى تهم المديريات بالإضافة إلى ردود هؤلاء الحكام متضمنة أسلوب إدارتهم لجهات بلادهم والعقبات التى كانت تصادفهم.

- سجلات ودفاتر حسابات مديريات السودان: وهى عبارة عن الميزانيات المتعلقة بمديريات السودان والتى تشمل كافة الايرادات وأوجه الصرف المتنوعة. والملفت للنظر حقاً فى هذه السجلات على وجه الخصوص الدقة المتناهية فى الحسابات من حيث تسجيل كل شاردة وواردة، وعدم وجود أى «كشط» أو أخطاء بالدفاتر بالإضافة إلى تنسيقها ووضوح خطها وتجليدها بأسلوب يحفظها لسنوات طويلة.

- محافظ أبحاث السودان: وتقع فى ٤٤ محفظة، تبدأمن عام ١٢٣٥هـ وتنتهى فى عام ١٣٠٠هـ. وكل محفظة مقسمة إلى عدة دفاتر حسب الشهور الهجرية. وهذه المحافظ تحتوى على معلومات متعددة الجوانب وذات أهمية تاريخية. فقد جمعت من عدة دواوين وسجلات مختلفة كالجهادية والمعية السنية ومديريات السودان وغيرها. وتتميز هذه السجلات بترتيبها وترقيمها الأمر الذى يمكن الباحث الاطلاع عليها دونما عناء. ويمكن للباحث أن يجد فيها معلومات عن الأوضاع الإقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية.
- سجلات مجلس الأحكام: وتحوى هذه السجلات جميع الأوراق المتعلقة بالشئون القضائية التى تعرض على الجمعية الحقانية وعلى مجلس الأحكام.
- ديوان المدارس: ويضم هذا الديوان: كافة الوثائق التى تتعلق بأمور التعليم.
- محافظ اللوائح: وتوجد بها عدة كتيبات وملفات تحوى اللوائح الرسمية مثل «سياسة تامة» الصادر فى عهد محمد على، وقانون «نامه همايونى» ومعاهدة الرقيق المبرمة بين مصر وبريطانيا فى ٤ أغسطس ١٨٧٧ وغير ذلك.
- محافظ الوثائق الافريقية: ويبلغ عددها حوالى ١٢ محفظة تدور موضوعاتها حول علاقات كل من مصر والسودان بجيرانهما من الدول الافريقية مثل الحبشة وجهات الصومال ودارفور (قبل ضمها) وغيرها.

- محافظ الثورة العرابية: وهى ذات أهمية بالغة لمن يروم دراسة هذه الثورة المصرية وتتبع جذورها وأحداثها ونتائجها وما ترتب عليها من احتلال انجليزى لمصر.

- محافظ الشركات: وهى تضم كافة الموضوعات التى تتعلق بتلك الشركات التى انشئت بمصر، ومؤسيسها من المصريين والأجانب، والدور الذى لعبته هذه الشركات فى الإقتصاد المصرى من كافة جوانبه.

- وثائق الإدارات المحلية لمديريات مصر: وهى تتعلق بأجزاء القطر المصرى حيث توجد لكل مديرية أوراق منذ نشأتها وتطورها كبورسعيد مثلاً والسويس وغيرهما.

- وثائق الأرشيف الأوربى: وهى عبارة عن عدة تقارير لقناصل الدول الأوربية فى مصر والسودان، ومن أهمها وثائق الأرشيف الانجليزى والأرشيف الفرنسى، والأرشيف النمساوى وهى مكتوبة بلغات هذه البلدان.

- وثائق الأرشيف الأمريكى: ويحتوى على عدة محافظ عبارة عن تقارير من القنصل العام للولايات المتحدة الأمريكية بالإسكندرية إلى الخارجية الأمريكية.

٣ - مصلحة الشهر العقارى:

وتحوى الأوراق الخاصة بالوقف والرهونات والتوكيلات وغيرها من العقود المسجلة.

وللوثيقة الشرعية أركان حتى تكتسب الحجية القانونية حيث ينبغى

أن تكون مشتملة على تعريف المتصرف والمتصرف فيه، ثم النص على ما يفيد حجة التصرف وخلوه مما يفسده؛ ويشتمل على شهادة الشهود وتاريخ الصرف وغير ذلك من الأركان. وليس من شك فى أن هذه الحجج بما تحويه من معلومات تلقى أضواء ساطعة على تاريخ مصر منذ العهد المملوكى والعثمانى من النواحى الاقتصادية والاجتماعية، كما أنها توضح لنا طبوغرافية المدن وآثار مصر الإسلامية ونظام الوقف فى تلك الأزمنة.

٤- أرشيف المحاكم الشرعية:

يمكن القول بأن الإدارة منذ عهد محمد على الكبير إلى أيام إسماعيل كانت تسيطر على القضاء والتشريع. فالديوان الخديوى الذى كان يفصل فى الخصومات بين الأهالى والأجانب كان يقوم بسن اللوائح، وكانت سلطة التشريع وسلطة القضاء فى يد الوالى. وكان المجلس الخصوصى يقوم مقام السلطة التشريعية الكبرى، وكانت المحاكم الشرعية تصدر أحكامها وفقاً لمذهب أبى حنيفة فى بعض الأوقات، وتارة حسب مذهب بن حنبل، وتارة وفق مذهب الشافعى. ولم يكن للقاضى مرتب بل كان يتقاضى ٢٪ من قيمة الوقفيات والاستبدالات والبيوعات والهبات. وهكذا يتبين لنا أننا أمام أحداث تاريخية طويلة وهامة. ويضم أرشيف المحاكم لوائح المحاكم الشرعية وتقدير الرسوم. واستخراج الصور ولوائح الوقف وتفسير المواد المتعلقة بالوقف ولوائح تنفيذ الأحكام، وزواج أهل الكتاب، والإجراءات الخاصة بدفاتر الزواج والطلاق والفتاوى.

٥ - متحف دار القضاء العالى:

ويضم ملفات القضايا السياسية الهامة كالتآمر والتجسس والتخابر التى يمكن للمؤرخ من خلالها أن يقرأ كثيراً من الأحداث التاريخية الكبيرة

التى مرت بها البلاد خصوصاً وأن التحقيق فى مثل هذه القضايا يستغرق وقتاً طويلاً وتفصيلات دقيقة.

٦ ـ أرشيفات ووثائق الوزارات:

يمكن للمؤرخ أن يجد مادة تاريخية قيمة تتعلق بموضوع دراسته فى أرشيفات الوزارات المختلفة. فعلى سبيل المثال يمكنه أن يجد فى وزارة الخارجية كثيراً من نصوص المعاهدات والاتفاقيات والمراسلات الدبلوماسية وفى أرشيف وزارة التربية والتعليم يمكنه أن يجد مادة غزيرة تتعلق بتطور تاريخ التعليم من عدة جوانب كأعداد التلاميذ فى كل مرحلة من المراحل ومدى التطور الذى لحقهم، بالإضافة إلى ميزانية المنصرف عليهم وعلى المبانى، وأوضاع المدرسيين والقائمين على أداء مهمة التعليم.

وفى وزارة ا لمالية والتجارة الداخلية والخارجية والاقتصاد سوف يعثر الباحث على مادة علمية دقيقة من احصاءات وتطورات اقتصادية ومالية تساعده فى تتبع وضع مصر الاقتصادى والمالى عبر التاريخ.

ويمكن أن نضيف إلى هذه الأماكن التى تعين الباحث فى كتابه بحثه التاريخى المتنوعة مكتبة دار الكتب المصرية وفروعها المنتشرة، ومكتبات جامعات القاهرة وعين شمس والأزهر والجامعة الأمريكية وجامعة الدول العربية وغيرها. ففى هذه المكتبات توجد المخطوطات وبعض المذكرات والمصادر الهامة والكتب النادرة.

هكذا نرى أهمية تلك الدور التى تحوى أسراراً هامة تعطى للمؤرخ مادة تاريخية قيمة تفيد فى تغيير الواقع. ومع ذلك فالدعوة لا زالت قائمة

إلى مزيد من الاهتمام بدور الوثائق وخاصة فى بلادنا من حيث الفهرسة والتنظيم وطرق الحفظ، وأسلوب السماح لدخولها والاطلاع على وثائقها، وإدخال الوسائل العلمية الحديثة التى تسهل من عملية البحث مثل آلات التصوير التى تختزل كثيراً من أوقات الباحثين وغير ذلك.

رابعاً: مرحلة النقد:

وينقسم النقد إلى مرحلتين:

١ـ النقد الخارجى أو الظاهرى: External Criticism

وفيه نتساءل هل الوثيقة صحيحة أى كما كانت فى الأصل، ثم نحقق المصدر الذى تنتسب إليه الوثيقة.

٢ـ النقد الباطنى: Internal criticism

وفيه نتساءل ما معنى النص؟ وهل آمن به صاحبه؟ وهل كان محقاً فى إيمانه؟

أولاً: النقد الخارجى: وينقسم إلى قسمين:

(أ) نقد الاستعادة أو التصحيح:

وفيه يتم التحقق من صحة الوثيقة أو الوثائق التى فى حوزتنا عن الواقعة أو الوقائع التاريخية، فعلينا أن نعرف هل الوثيقة صحيحة؟ أى أنها هى الوثيقة الحقيقية التى كتبها صاحبها وليس بها حشو أو إضافة.

وغالباً ما تكون لدينا أحوال ثلاثة للوثيقة:

١ ـ وثيقة بخط المؤلف: وهنا نقوم فقط بنسخ الوثيقة كما هى دون زيادة حرف أو نقصان، فمهمتنا هنا مهمة فوتوغرافية إن جاز التعبير لأن هدفنا هو تقديم وثيقة المؤلف الأصلية بالضبط.

٢ ـ وثيقة ليست بخط المؤلف بل نسخة وحيدة مليئة بالأخطاء، ولكى نقوم باصلاح النص يجب أن تتوفر شروط فى الشخص الذى يقوم بذلك من حيث احاطته باللغة التى كتب بها النص، وأن يكون عالماً بالخطوط التى كتبت بها النصوص التى يتعامل معها وبكل الخطوط التى مرت بلغة من اللغات إذا كان يتناول عصوراً متطاولة، كما عليه أن يكن عالماً بالأخطاء الشائعة.

٣ ـ أكثر من وثيقة: وهنا يكون عملنا ميسراً، ولكنه فى ذات الوقت طويل، حيث ينبغى علينا أن ننظر فى كل هذه الوثائق أو المخطوطات كى نتبين ما ينتسب منها إلى أصل واحد. ومن ذلك كله نهدف إلى الوصول إلى صورة أقرب ما تكون إلى النص الأصلى للوثيقة.

(ب) نقد المصدر:

وهو القسم الثانى من النقد الخارجى والذى يعنى ببيان ومعرفة مصدر الوثيقة، ومن هو مؤلفها؟ وما تاريخها؟ كما يجب علينا ألا نثق مطلقاً فى التأكيد على أن فلاناً هو مؤلف الوثيقة، فهناك دوافع متعددة للتزوير، كأن تكون الوثيقة عظيمة القيمة أو قليلة الأثر أيضاً أو للدفاع عن مذهب معين.

وهناك عدة وسائل للكشف عن المؤلف الحقيقى وتبيان التزييف، فكلما كانت المؤلفات بعيدة فى الزمن كلما كان الوصول إلى حقيقة مؤلفها صعباً والعكس صحيح. وهناك أيضاً خطوات لمعرفة المؤلف الحقيقى وهى:

١ـ القيام بعملية تحليل باطنى، بمعنى النظر فى الوثيقة من حيث الخط، فالخطوط تختلف من عصر إلى عصر.

٢ ـ النظر فى اللغة التى كتبت بها الوثيقة، فالصور اللغوية وأنواع العبارات والمجازات والتعبيرات تختلف من عصر إلى عصر.

٣ ـ النظر فى الوقائع أو الأحداث التى وردت فى الوثيقة من حيث إمكان حدوثها فى الزمان والمكان المنسوبين إليه والنظر فى كتب المعاصرين عن وجود إشارات إلى هذه الوقائع.

ثانياً: النقد الباطنى:

وينقسم إلى قسمين:

(أ) النقد الباطنى الايجابى.

(ب) النقد الباطنى السلبى.

(أ) النقد الباطنى الايجابى:

وهو عبارة عن عملية لغوية الهدف منها تفسير نص الوثيقة وفهم معناها. وهذه العملية قد تكون عسيرة وشاقة كلما كانت اللغة قديمة. فاللغات كائنات حية تتغير معانيها وألفاظها بتغير الأزمان والأمكنة. فعلينا إذن أن نعرف اللغة التى كتبت بها الوثيقة كما كانت فى العصر الذى كتبت فيه.

كذلك ينبغى علينا أن نفهم الكلمات وفقاً للسياق الذى توجد به. ويجب أن نلاحظ أيضاً أن استخدام التشبيهات والاستعارات وأنواع المبالغات والمجازات والكنايات قد يؤدى إلى أن يتبدى من ظاهر النص غير ما يقصد إليه المؤلف، ولهذا لا يجب أن تأخذ النصوص بظاهرها.

(ب) النقد الباطنى السلبى:

وهذه العملية ترمى إلى معرفة نزاهة المؤلف ودقته. وفيها يجب أن نبحث فى صحة مشاهدة مؤلف الوثيقة للحادث وهل أصاب فى وصفه أم أخطأ؟ وهل خدع فى بعض ما شاهده وهل لم تكن لديه دوافع خاصة تجعله يشوه تصوير الحدث.

ولا يمكن أن نثق فى أية رواية بل لابد أن نبدأ بالشك فى صحتها.. فالوثائق ابتداءً كلها مزيفة وعلى المؤرخ أن يبدأ بالشك فى صحتها وأن يفترض الخيانة فى كل راو وعليه أن يتحقق من أمانته.

وبناء على ما تقدم يجب أن نتبع قاعدتين:

الأولى: ألا نثق فى رواية لمجرد أن صاحبها شاهد عيان.

الثانية: ألا نأخذ الوثيقة ككل بل يجب تحليلها إلى جزئيات صغيرة.

ويتشعب البحث بعد ذلك إلى شعبتين:

١ـ الرواية المباشرة (شهادة العيان):

ويجب ألا نثق فيها كثيراً لمجرد أنها رواية مباشرة وصاحبها شاهد عيان، فقد يكون عرضة للأوهام أو يروى الحدث على نحو معين خاص لا يستطيع أن يرى الأشخاص ألا على هذا النحو أو تكون الوقائع معقدة ومتشابكة. كما أننا نفترض فى المؤلف الكذب، فهناك دوافع كثيرة لهذا الكذب كالدوافع المادية أو وجوده فى وضع اضطره إلى الكذب أو أن يكون المؤلف مدفوعاً بدافع البغضاء لجماعة من الجماعات الدينية أو السياسية أو الاجتماعية.

٢ـ الرواية غير المباشرة:

وهى التى جاءت عن طريق الآخرين وأكثر المؤرخين يسيرون على هذا الأساس فى كتابة الأحداث التاريخية. وهنا ينبغى أن نسلك طريقاً نحاول قدر المستطاع أن نتسلسل فيما بين الرواة المتوسطين حتى نصل إلى الراوى الأصلى الذى عاين الحادث، ثم ننظر فى هذا الراوى من حيث أمانته ودقته كما فعلنا فى الرواية المباشرة. ولكن ذلك عسير جداً ولا يكاد يتوافر الآن إلا فى الأحاديث النبوية الشريفة.

خامساً: الإثبات والتركيب التاريخى:

وهى المرحلة قبل الأخيرة فى منهج البحث التاريخى. وأول مراحل هذه العملية أن يقوم الباحث بتصنيف النتائج التى وصل إليها من خلال عملية النقد، أى أن يقوم بضم كل المعلومات التى فى حوزته عن حادثة معينة إلى بعضها البعض ويقارن بينها للوصول إلى رأى نهائى فيها أى الوصول إلى مرحلة اليقين وطرح الشك، إلا أنه فى بعض الأحيان لا نجد سوى رأى واحد فى موضوع ما، وهنا لابد أن ننظر بعين الشك والحذر إلى هذه الرواية المفردة لأنها ليست الحقيقة النهائية. وليس معنى ذلك أن نطرحها جانباً لمجرد أنها رواية فردية، بل نشير إليها على أن يتحمل صاحبها وحده تبعيتها من حيث الصحة والكذب. أما إذا تعددت الروايات حول حادثة واحدة واختلفت المصادر حولها فينبغى على الباحث فى هذه الحالة أن يسير وفقاً لبعض القواعد التى تساعده فى الوصول إلى الحقيقة التاريخية والخروج بها عن دائرة الاختلاف والتناقض. وهذه القواعد تتلخص فى الآتى:

١ـ لا يصح للباحث أن يقوم بعملية توفيقية بين الآراء المتعارضة، بل عليه أن يبحث من بينها عن الرأى الصادق، فإن تعذر ذلك فعليه أن يعترف بذلك ذاكراً كل الآراء المتعارضة.

٢ ـ إذا شذ رأى واحد عن الآراء المتفقة فليس معنى ذلك أن الآراء المتفقة هى الأصوب، فربما يكون الرأى المخالف هو الصحيح، وعلى الباحث أن يصل إلى الصواب عن طريق النقد.

٣ ـ فى حالة إذا ما أراد الباحث أن يرجح رأياً على آخر فعليه أن يتبع عملية النقد، فإذا لم يستطع فعليه أن يتوقف عن اصدار حكم قاطع مع السير فى البحث، فربما يعثر على أدلة تشرح له الغموض.

وقد تصادف الباحث خلال عملية الإثبات والتركيب التاريخى بعض الثغرات. وهنا عليه أن يستخدم ثقافته واجتهاده.

سادساً: مرحلة الكتابة:

بعد ذلك كله نأتى إلى المرحلة الأخيرة من مراحل البحث التاريخى وهى مرحلة الكتابة، حيث يبدأ الباحث فى عرض موضوعه بعد أن أجرى المراحل السابقة لذلك.

ويفرق بعض الباحثين بين نوعين من الكتابة التاريخية؛ الأولى وتوضع لجمهور العامة من الناس بقصد الثقافة العامة، وفيها يقدم الكاتب عرضاً سهلاً واضحاً مختصراً دونما اغراق فى التفاصيل والجزئيات. وغالباً ما يكون هذا النوع من الكتابة خلواً من قوائم المصادر والمراجع اللهم ألا بعض المصادر العامة التى يمكن أن يسترشد بها القارىء إن أراد

مزيداً من التفاصيل. كما أنها تكون أيضاً خلواً من الهوامش التى لا تهم القارىء العادى كثيراً.

ويفضل أن يكتب مثل هذه المؤلفات العامة نفس الباحثين الذين يكتبون للمتخصصين إذ أنهم أقدرعلى إعطاء صورة مختصرة وغير مخلة.

أما النوع الثانى من الكتابة فهو للمتخصصين وهو ما يعنينا بصورة أساسية. وهناك عدة أمور يجب أن يراعيها الباحث عند عرض مادته التاريخية من حيث سلامة التعبير باللغة التى يكتب بها والألفاظ المعبرة مبتعداً عن التعبيرات الصعبة المعقدة والغريبة أحياناً، كذلك فإن عليه أن يبتعد عن الأسلوب الأدبى الصرف، فكثيراً من الباحثين يعمدون إلى ذلك عمداً لايهام القارىء بقدرتهم على التمكن من اللغة التى يكتبون بها. ولسنا هنا فى معرض التقليل من أهمية التمكن من اللغة التى يكتب بها الباحث ولكننا نحذر من الإفراط الزائد فى هذا الأمر لأنه فى تقديرنا نوع من التطرف تماماً كما هو الحال بالنسبة للكتابة بأسلوب ركيك ممل، وعلى الباحث أن يبتغى بين ذلك سبيلاً، وصولاً إلى الوضوح فى عرض نتائجه التى خرج بها.

وقد يكون جميلاً لو أن الباحث لديه ملكة التذوق الفنى حتى يستطيع أن يعرض لحقائقه التاريخية بأسلوب ممتع كما فهمها دون تغيير حتى يستطيع أن يشد القارىء إلى استمرارية القراءة ويجعله ينتقل من فكرة إلى فكرة فى سهولة ويسر بحيث تصبح قراءة البحث التاريخى نوعاً من المتعة الفكرية لدى القارىء.

وعلى الباحث أن يبرز شخصيته فى الكتابة من خلال إبداء رأيه كلما اقتضت الضرورة فهو أكثر الناس فهماً لموضوعه وبالتالى فهو أجدرهم فى الإجابة على كل التساؤلات التى تتراءى أمام القارىء حول القضية التاريخية التى يعرض لها. وعلى الباحث أن يدعم آراءه بأدلة كثيرة كلما أمكنه ذلك بادئاً بأبسطها ومنتهياً بأكثرها إقناعاً.

الجوانب العملية فى العرض التاريخى:

ا ـ اللغة والإملاء

هذه مسألة هامة جداً، لدرجة أنها باتت من القضايا الخطيرة التى تؤرق المشرفين على البحوث العلمية بصفة خاصة، ذلك أن طلابهم كثيراً ما يقعون فى هذه الأخطاء اللغوية والاملائية الأمر الذى يجعل بحثهم معيباً من الناحية الشكلية، فهم أشبه بمن بنى بيتاً قوى الأركان.. شامخ البنيان ثم تركه فى النهاية بعد أن انفق عليه الكثير. دون إتمام العمليات الشكلية اللازمة من حيث طلائه بلون براق يشد الناظرين، ويضفى جمالاً على جماله. فاللغة والأسلوب فى تقديرنا أشبه بهذا.

ولست مع الداعين إلى أن يقدم الباحث بحثه لمتخصص فى اللغة لإجراء التصويبات اللازمة، بل عليه أن يتعلم بنفسه كيف يكتب بلغة سليمة خصوصاً إذا كانت لغة بحثه هى اللغة التى يتكلم ويكتب بها، ففى هذه الحالة تكون اللغة أداة هامة من أدواته التى يستخدمها، ولنا أن نتخيل أى صانع لا يملك أدوات صنعته فما بالنا إن كان لا يجيد استخدامها!

ب ـ الأسلوب التاريخى:

لكل علم أدواته وأساليبة التى يكتب بها فكما أن للأدب تعبيراته الخاصة به ، كذلك فإن للتاريخ تعبيراته ومصطلحاته الخاصة به.

ومن تلك التعبيرات المستخدمة فى كتابة التاريخ ما يلى: «ويبدو أن...» ويتضح من ذلك...» و«ومن المفيد أن نذكر» و«ربما يكون الأمر..» إلخ.. وعلى الباحث أن يبتعد عن استخدام ضمائر المتكلم بكثرة مثل أنا نحن، أو كلمات مثل: أرى ـ نرى.. إلخ، كذلك فعلى الباحث أن يتجنب العبارات القاطعة المانعة مثل: «إن هذا الشيء قد تأكد لنا...»، «إننا نؤكد..»، ونقول إن على الباحث تجنب هذه العبارات لأنه ربما يأتى باحث آخر بعده يدرس نفس النقاط التى تعرض لها فيصل إلى نتائج جديدة تنسخ ما سبقتها. فعليه إذن أن يترك الباب مفتوحاً لاجتهادات جديدة.

وعلى الباحث أيضاً أن يمتنع عن بعض التعبيرات التى قد تسىء إلى البحث أحياناً والتى درج كثيرمن الباحثين فى الآونة الأخيرة على استخدامها فى بحوثهم العلمية بقصد الرياء مثل: أستاذنا الجليل»، «العالم العلامة»، «المؤرخ الفذ».. إلخ فالباحث سمته التواضع والهدوء. كما أن عليه أن يتجنب أساليب التهكم والسخرية من الآخرين وألا يسفه آراءهم فربما يأتى بعده باحث آخر يتوصل إلى حقائق أفضل من تلك التى توصل إليها، بل عليه أن يعرض رأيه فى تواضع وأدب يليقان بالعلماء فلسنا فى ساحة وغى، ولكننا فى ميدان شريف.. كلنا ينشد الحقيقة.. منا من يصيب ومنا من يتعثر ولا عيب طالما كان الهدف فى النهاية هو الوصول إلى الحقيقة أو الاقتراب منها أو حتى التمهيد لها.

(جـ) الفقرات:

وهى عبارة عن مجموعة من الجمل ذات اتصال وثيق تؤدى إلى توضيح معنى معين. وينبغى أن يكون ترتيب الفقرات متسلسلاً ومنطقياً

بحيث تبنى كل جملة على ما سبقتها وتمهد لما بعدها. كذلك فإنه يجب أن تكتب كل فقرة مستقلة بذاتها على الورقة حيث يبدأ الكاتب سطراً جديداً لكل فقرة بعد ترك مسافة قصيرة فى أول السطر. ويختتم الفقرة بنقطة، كما ينبغى أن تترك مسافة واضحة بين كل فقرة وأخرى.

(د) الاقتباس:

يمكن للباحث أن يقتبس من بعض الوثائق والمصادر والمراجع، وعليه فى هذه الحالات أن يضعها بين «شولات» «...» إذا كانت قصيرة جداً (حوالى ستة أسطر)، أما إذا كانت طويلة فينبغى أن تكتب بخط مميز بحيث تضيق المسافة بين السطور ويكون الهامش عن يمين الاقتباس وشماله أكثر إتساعاً من الهامش الأبيض المتبع فى الرسالة أو البحث، كما أن « بنط» الحرف الذى يكتب به الاقتباس يكون صغيراً عن بنط الكتاب أو البحث. أماإذا كثر الاقتباس عن صفحة، فإن على الباحث أن يصوغ المعنى فى أسلوب خاص ويشير إلى ذلك فى الهامش إلى المرجع الذى اقتبس منه.

(هـ) الألقاب:

وفى حالة ذكر أى شخص ما فى البحث فإن القاعدة المعروفة هنا هى أن نذكر اسمه دون ذكر لقبه أو وظيفته التى يشغلها، فتقول مثلاً: ويرى «شفيق غيال» أو ويشرح «طه حسين»، وصرح «جمال عبدالناصر» وهكذا.

أما كتابة الألقاب مثل: دكتور، عميد، وزير، رئيس وغيرها فليست من الأسلوب العلمى فى شىء وغير محببة. أما إذا كان اللقب متصلاً

بفكرة يتحدث عنها الباحث فلا بأس من ذكرها دون أن يكون المقصود بها التكريم بل الإيضاح. ولا يفهم من ذلك أن التغاضى عن ذكر الألقاب فى صلب البحث فيه مهانة وحط من تقدير الشخص.

وهناك عدة أمور ينبغى ذكر الألقاب والوظائف منها:

١ ـ أثناء ذكر مصادر الرسالة فى نهاية البحث.

٢ ـ فى حالة الإشارة إلى الاعتراف بالجميل أثناء المساعدة.

(و) الاختصارات والمصطلحات:

هناك الكثير من الأسماء الطويلة التى يتردد ذكرها فى البحث مرات عديدة الأمر الذى يشكل صعوبة ومللاً فى تكرارها، وهنا يحسن أن يضع الباحث لكل واحد منها اختصاراً ويقوم بعمل كشاف أو دليل لها فى أول الرسالة أو البحث وهكذا يفعل بالنسبة لبقية المصطلحات مثل:

دار المحفوظات العمومية البريطانية Public Record Office

التى تختصر إلى (P. R. 0) وكذلك Foreign Office التى تختصر إلى (F. O)، وقبل الميلاد (ق. م)، التاريخ الهجرى (هـ)، والتاريخ الميلادى (م)، صفحة (ص) وهكذا.

(ز) الحواشى (الهوامش) Footnotes

الحاشية هى المكان الذى فى أسفل الصفحة والذى يفصل بينه وبين المتن بخط صغير غير مكتمل. وللحاشية ثلاث وظائف:

أولاً: الإشارة إلى المصدر الذى أخذ عنه الباحث مادته سواء أكانت وثيقة أو كتاباً أو مجلة أو محاضرة، أو تسجيلاً، وكل هذا يوضح للقارىء

أن الباحث قد اطلع على مصادر كثيرة واستفاد من المراجع التى تتعلق بموضوعه، كما تشير إلى الاعتراف بفضل هؤلاء الباحثين الذين استفاد منهم.

ثانياً: إيراد بعض التفاصيل التى لا تهم البعض، وقد تهم البعض الآخر. فمثلاً هناك قصة صغيرة تتعلق بالبحث ولكن يصعب وضعها فى صلب الموضوع لأنها تقطع على القارىء خيط القراءة وتدخله فى تفاصيل تفقده الفكرة الرئيسية ويحسن هنا أن يوردها الباحث فى الهامش أو فى آخر البحث فيما يعرف بالملاحق.

ثالثاً: إحالة القارىء إلى أماكن أخرى فى الكتاب سابقة أو لاحقة، أو لفت نظر القارىء إلى مصادر أخرى يمكن الرجوع إليها.

وهناك أيضاً ثلاثة أساليب لذكر الحواشي:

١ ـ أن تكتب حواشي كل صفحة فى أسفلها.

٢ ـ أن تكتب الحواشى المتعلقة بكل فصل من فصول البحث مجتمعه فى نهاية بادئه برقم (١) إلى نهاية الترقيم.

٣ ـ أن تكتب حواشى كل الفصول فى نهاية البحث مرة واحدة، كل فصل على حدة.

وقد يكون من الأفضل ـ فى تقديرنا ـ لو استخدمنا الأسلوب الأول لسهولته بالنسبة للقارىء حتى إذا ما أراد التأكد من المصدر أو متابعة التفاصيل أمكنه ذلك بسهولة وبمجرد نظرة إلى أسفل الصفحة بدلاً من تكرار الانتقال إلى الهوامش نظراً لوجود فاصل طويل الأمر الذى يصيب القارىء بالملل.

كيفية كتابة الحواشي:

هناك خط أفقى صغير كما ذكرنا يفصل بين الحواشي وبين صلب الرسالة. وتأخذ الحواشى عند ذكر المصادر والمراجع أرقاماً مسلسلة ترضع أسفل بعضها بانتظام، ويتم كتابة المصادر كالتالى:

١ ـ إذا ذُكر المصدر أو المرجع لأول مرة تتم كتابته كما يلى: مؤلف الكتاب، اسم الكتاب، الجزء، الصفحة مثل:

عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الرابع، ص ٢٥.

٢ ـ إذا اشترك أكثر من مؤلف فى تأليف الكتاب نذكر اسم أشهرهم ونشير إلى الباقى بلفظة وآخر أو وآخران، أو وآخرون ثم رقم الصفحة مثل:

محمد فؤاد شكرى وآخران: بناء دولة مصر محمد على، ص٢٥.

٣ ـ إذا كان الكتاب لمؤلف مجهول نذكر اسم الكتاب ونذكر عبارة (لمؤلف مجهول)، ثم الصفحة.

٤ـ فى حالة ذكر اسم المؤلف فى صلب الرسالة فلا داعى لإعادة ذكره فى الهامش بل يكتفى بكتابة اسم الكتاب وبقية المعلومات.

٥ ـ إن كان الاقتباس من كتاب نقل عن كتاب آخر فينبغى هنا ذكر اسم الكتاب الأصلى ثم نذكر بعد ذلك اسم الكتاب الذى تم النقل عنه ويتم ذلك فى حالة عدم إمكان العثور على الكتاب الأصلى.

٦ ـ فى حالة الاقتباس عن صحيفة أو مجلة نذكر اسم الصحيفة أو المجلة وعددها وتاريخ صدورها ثم عنوان المقال فى حالة المجلة ثم رقم الصفحة.

٧ ـ فى حالة الاعتماد على مخطوط لم ينشر تتم الإشارة إلى ذلك مع ذكر مكان حفظه ورقمه.

٨ ـ فى حالة الاعتماد على محادثة شفوية أو محاضرة ينبغى الإشارة إليها هكذا: (طه حسين: حديث شخصى (نوفمبر ١٩٥٠).

٩ ـ إذا تكرر المرجع فى نفس الصفحة دون فاصل بينهما يذكر المرة الأولى كاملاً، وفى المرة الثانية هكذا (نفس المرجع، ص٥٠).

أما فى حالة المرجع الأجنبى فتقول (Ibid. P.50).

١٠ ـ فى حالة وجود فاصل واحد، فبالنسبة للمرجع العربى يشار إليه بذكر: اسم المؤلف، المرجع السابق، رقم الصفحة. وفى حالة المرجع الأجنبى تكون الإشارة إليه هكذا (OP. cit., P.50).

١١ ـ فى حالة ما إذا كان الاقتباس الثانى من نفس الجزء والصفحة.

ففى حالة المرجع العربى تكون الإشارة : نفس المكان.

وفى حالة المرجع الأجنبى تكون الإشارة: (Loc cit).

هى اختصار لـ : (Loco citato) ومعناها:

(In the Place cited)

١٢ ـ إذا كان مؤلف الكتاب مشهوراً فليست هناك ضرورة لايراده بالكامل مثل: (الجبرتى: عجائب الآثار. ص ٢٥).

١٣ ـ فى حالة المراجع الأجنبية يشار إلى الجزء بالمقطع (vol) وهى اختصار للكلمة (volume)، أما إذا كان المراجع فرنسياً فيشار إلى الجزء بالمقطع (Tome)، كما يشار إلى الصفحة فى كلتا الحالتين (الإنجليزية ـ الفرنسية) بالحرف (P.) وهى اختصار للكلمة (Page). وإذا تعددت الصفحات تذكر على النحو التالى: (pp.).

١٤ ـ إذا أراد الباحث الإشارة إلى ورود الفكرة أو المعنى فى عدة أماكن من كتاب معين، فتكون بالنسبة للمرجع العربى (فى أماكن متعددة)، وبالأفرنجية (Passim) بمعنى (هنا وهناك).

١٥ ـ إذا كان الاقتباس من كتاب نشرت به أبحاث علمية متعددة لأكثر من باحث يذكر فى الهامش اسم صاحب البحث وعنوان بحثه ثم ناشر الكتاب وعنوانه.

(جـ) الجداول والصور والخرائط:

قد تحتاج طبيعة بعض البحوث والدراسات إلى الجداول وخاصة البحوث الاقتصادية لعمل مقارنات بين الأرقام وهى هامة جداً، إذ أنها تؤدى مهمة كبيرة بمجرد إلقاء نظرة إليها، وقد تكون الصور هامة أيضاً لبعض البحوث، فالباحث مثلاً فى تطور ملابس الجيش المصرى عبر العصور عليه أن يدعم بحثه ببعض الصور لتوضيح الفروق بين هذه الملابس وتطورها.

وكذلك الحال بالنسبة للخرائط التى تساعد القارىء فى فهم الموضوع وتخيل الأحداث واستيعابها بسرعة. فعلى سبيل المثال فإن المتتبع لمسيرة الجيش المصرى من مصر إلى سنار فى عام ١٨٢٠ يحتاج فى فهم هذه المسيرة عبر القرى والمدن والصحارى والسهول لخريطة تفصيلية تسهل من مهمة القارىء وتبين مدى المشاق الطبيعية التى لاقاها هذا الجيش طوال هذه المسيرة.

وفيما يتعلق بالجداول فيوصى بوضعها عقب الفكرة التى يتناولها الباحث حتى تكون الفكرة متصلة ويسهل مقارنة النقاط والأفكار بمجرد نظرة سريعة وإن كان البعض يرى وضع هذه الجداول فى نهاية البحث.

أما فيما يتعلق بالصور فإنه يراعى أن تكون فى صفحات مستقلة مع وضع عنوان للتعريف بها.

(د) الملاحق:

وهى عبارة عن موضوعات مطولة ومتكاملة كالمعاهدات والدساتير والخطب وغيرها. فقد يكون من الصعب أن يوردها الباحث فى صلب الرسالة بنصها الكامل وهنا يكتفى بالإشارة لها والرجوع إليها فى آخر البحث ضمن الملاحق إن أراد مزيداً من التفاصيل. ولا ينبغى أن توضع الملاحق لمجرد زيادة صفحات الرسالة ولكن باعتبارها جزءاً ضرورياً وهاماً فى البحث، كما يشترط أن تكون أصيلة أى لم يسبق نشرها من قبل حتى يعم نفعها، كما ينبغى أيضاً أن يقوم الباحث بوضع أرقام مسلسلة لكل ملحق من ملاحق البحث.

(هـ) المصادر:

وفى نهاية البحث يقوم الباحث بايراد قائمة بأسماء المصادر التى اعتمد عليها فى بحثه وقد اتفق الكثيرون من المؤرخين فى ترتيبها على النحو التالى:

أولاً: الوثائق الأصلية غير المنشورة.

ثانياً: الوثائق الأصلية المنشورة.

ثالثاً: المذكرات الشخصية.

رابعاً: الدوريات المعاصرة.

ويراعى أن تكون الوثائق العربية أولاً ثم الأجنبية.

خامساً: البحوث والدراسات العلمية:

أ ـ باللغة العربية.

ب ـ باللغات الأجنبية.

ويجب أن ترتب المصادر والمراجع ترتيباً ابجدياً. فبالنسبة للوثائق ترتب وفقاً لعناوينها، وبالنسبة للمؤلفات والبحوث ترتب وفقاً لمؤلفيها بعد تجريدهم من الألقاب السابقة لأسمائهم.

ومن الأمور التى يجب مراعاتها فى البحث أن يقوم الباحث بعمل مقدمة لبحثه تتضمن العناصر الآتية:

١ ـ أسباب اختياره لموضوعه الذى قام ببحثه.

٢ ـ المنهج الذى اتبعه فى البحث والخطة التى أقام عليها بحثه وأسباب تفضيله لهذه الخطة عن غيرها.

٣ ـ أهم المصادر التى شكلت صلب رسالته وما قدمته للبحث من جديد.

٤ ـ الأماكن التى أودعت فيها مصادره مثل دور الوثائق العربية والأجنبية والمكتبات.

٥ ـ الصعوبات التى واجهت البحث خلال القيام به.

وينبغى على الباحث أن يزجى الشكر خالصاً إلى كل من قدم له عوناً فى بحثه، كذلك فإنه يجدر بالباحث أن يقدم فى نهاية بحثه قائمة تحوى أهم النتائج العلمية التى خرج بها من دراسته، بشكل مركز دون الولوج فى التفاصيل وعلى الباحث أن يتجنب تلخيص رسالته.

بهذا العرض الذى قدمناه للمراحل المتعددة للقيام ببحث علمى نكون قد وصلنا إلى آخرمرحلة من مراحله. وإذا ما سار الباحث وفق هذه المراحل أو الخطوات ملتزماً التزاماً دقيقاً بها فلسوف تكون نتائجه دقيقة أيضاً للوصول إلى مبتغاه ألا وهى الحقيقة التاريخية.

الفصل الرابع

مدارس التفسير التاريخى

- التفسير الدينى
- نظرية الرجل العظيم
- التفسير المادى
- التفسير المثالى

لقد جرت محاولات عديدة على مر العصور لتفسير الأحداث التاريخية أياً كانت درجة التعمق فيها والأساليب التى اتخذتها، ومن ثم طرحت خلال تلك المحاولات تساؤلات عدة. ومن خلال تلك المراحل أيضاً ظهر ما يعرف بمصطلح فلسفة التاريخ Philosophy of History . وقد اختلفت معانى هذا المفهوم من عصر إلى عصر.

١ـ التفسير الدينى للتاريخ:

وهو من أقدم المحاولات التى جرت لتفسير الظواهر التاريخية واستخدمها الإنسان القديم ليجيب من خلالها على كل ما هو غامض حوله. فقد رد هذا الإنسان كل تلك الأحداث إلى إرادة قوية عليا ليست فى مقدروره.

ومعروف لنا جميعاً أن التقدم التكنولوجى فى تلك العصور الغابرة كان محدوداً للغاية، الأمر الذى جعل الإنسان آنذاك يلجأ إلى الأساطير الدينية لتفسير الظواهر الطبيعية كطلوع الشمس وغروبها والبرق والرعد.

وقد ظل هذا التحليل البدائى الممزوج بالأساطير مستمراً حتى ظهور الرسالات السماوية: اليهودية ـ المسيحية ـ الإسلام والتى حاربت تلك الأفكار الوثنية وقدمت تفسيرات جديدة لنشوء هذه الظواهر واختفائها وهى تفسيرات منطقية وعقلانية كما يتضح فى الإسلام بصورة جلية.

ولعل أول ما يطالعنا فى مدرسة التفسير الدينى فى المسيحية مؤلفات القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠م) مؤلف كتاب «مدينة الله». وتتلخص آراء هذا الفيلسوف فى الأحداث التاريخية أنها ناتجة عن الإرادة الربانية، وأن العناية الإلهية تلعب دورها فى تلك الأحداث.

ومن أمثلة هذا الفكر لدى أوغسطين تفسيره لعظمة الرومان بإرادة الله، فالله سبحانه وتعالى أراد لهذ الامبراطورية الرومانية أن تصبح أعظم الامبراطوريات وتكون سوطاً ملهباً على الأمم الكافرة بأنعم الله.

كما فسر أوغسطين عظمة الامبراطور قسطنطين، أول الأباطرة المسيحيين المؤمنين بأنه عبد تقى وهبه الله نعمته حتى أمكنه لفظ عبادة الأوثان واللجوء إلى الله وحده إلى أن جعله الله على رأس الأمبراطورية الرومانية لمعاقبة عبدة الأوثان.

ولقد وجه المؤرخون الماديون النقد لمدرسة التفسير الدينى للتاريخ ووصفوا أسلوب أوغسطين بأنه عديم الجدوى فى تحليل الأحداث، فالمؤرخ عليه أن يبحث عن كل الوقائع التى واكبت الظاهرة أو سبقتها للخروج بتفسير لها. كما أنهم هاجموا أيضاً افراط أوغسطين فى التدين ورد كل شيء إلى عناية الله دون أن يعطى اهتماماً للبشر خصوصاً وأن علم التاريخ يهتم بالبشر.

ولم تسلم كل الأديان من نقد الماركسيين فهى لا تقدم فى نظرهم تعليلات حقة للتاريخ. وفى تقديرنا الخاص أن هذه المسألة تحتاج إلى إعادة نظر وخصوصاً فيما يتعلق بنظرة الإسلام إلى تفسير الوقائع، مع تسليمنا تماماً بأن المسائل الغيبية لا تقدم تفسيراً عقلانياً للأحداث.

والإسلام يدعو منذ نزول أول آية فيه إلى استخدام هذا الأسلوب العقلانى، وهو بالتالى لا يقبل التواكل ورد كل شيء إلى السماء أو إلى أمور غيبية. لقد كانت دعوة القرآن صريحة فى البحث والقراءة والوصول إلى تفسير سليم، وهذا ما نجده على سبيل المثال فى أول آية نزلت فى

القرآن الكريم وهى: إقرأ..، والقراءة تعنى البحث.. والبحث يعنى استخدام العقل والأسلوب العلمى، وفرق بين من يجلسون متواكلين دون علم وبين من تعلموا وتفقهوا فى العلم فقال «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» كما أن القرآن ملئ بالآيات التى تدعو إلى استخدام العقل والحكمة مثال: «أفلا يعقلون»، «أفلا يتدبرون». ولست أدرى كيف يلصق البعض بهذا الدين مثل هذه الاتهامات الباطلة التى تدل على أن أصحاب مثل هذه الآراء الباطلة لم يطلعوا على آياته أو يعقلوها، كما أن هذا الدين وهو خاتم الرسالات السماوية اهتم بالإنسان وكرمه أيما تكريم وأطلق له العنان فى التفكير ولم يكرهه على اتباع أسلوب معين متحجر، بل التحجر جاء من خلال الأفراد أنفسهم نتيجة جهلهم، وقد ذهب القرآن بعيداً وقطع شوطاً كبيراً فى حرية الفكر والعلم والمعتقد فقال: (لا اكراه فى الدين) فأى حرية فكرية بعد هذا وأية دعوة للعقلانية توصل إليها العالم المتمدين الآن أكثر من هذا!

باختصار شديد.. من الخطورة أن تقول أن هناك عاملاً واحداً لتفسير الحدث التاريخى فى الإسلام ولكن هناك مراحل عديدة دعا إلى استخدامها ومنها استخدام العقل.

ويرتبط بمدرسة التفسير الدينى مدرسة محدودة تفسر التاريخ على أساس أخلاقى، بمعنى أن التاريخ ما هو إلا دروس وعظات أخلاقية ينبغى أن يستفيد منها الفرد، وكذا الجماعات ويعرف كيف كان جزاء الآثمين الأشرار. وفى تقديرنا أن هذا الأمر لا بأس به ولا يمكن أن ننكره بل نعتبره أحد فوائد علم التاريخ ولا مانع أن يأخذ المرء عظات من التاريخ

ولكن المؤرخ لا يمكنه بأى حال من الأحوال أن يفرض هذا التفسير على كل أحداث التاريخ وإلا اعتبر ذلك تعسفاً لا مبرر له، وعليه أن يبحث فى كل العوامل التى كانت وراء الحدث التاريخى.

٢ ـ نظرية الرجل العظيم:

كانت هذه النظرية سائدة إلى وقت قريب فى أوربا حيث تمحورت أحداث هذه القارة حول شخصيات شهيرة مثل نابليون بونابرت فى القرن التاسع عشر وهتلر فى القرن العشرين وغيرهما من مشاهير العالم.

وربما كان هذا النوع من الكتابة التاريخية وما ارتبط به من تفسير يتناسب مع النظم السياسية الاوتوقراطية والملكيات المستبدة.

ويعد توماس كارليل الفيلسوف الانجليزى المحافظ (١٧٩٥ ـ ١٨٨١) صاحب كتاب (الأبطال والبطولة) من أكثر المؤمنين بهذه النظرية، وكان قد استقى نظريته من الفيلسوف الألمانى نيتشه، حيث يقول إن التاريخ العالمى الذى أنجزته الإنسانية كلها إنما هو تاريخ الرجال العظماء.

ومما يؤسف له أن هذه النظرية لا تزال تلقى رواجاً فى العالم وخاصة فى الشرق، فهى تساعد بعض النظم السياسية على الاستمرار فى الحكم والقبض بشدة على كافة الأمور ومن ثم بدأنا نسمع من حين لآخر عبارات مثل: (الزعيم الملهم)، (الزعيم القائد)، (الزعيم الخالد)، وغيرها، وراح الناس ينسجون القصص والبطولات من حولهم وينسبون إليهم الانتصارات التى تحققها الشعوب فى كافة مجالاتها العسكرية والاقتصادية والاجتماعية وكأن هذا الفرد هو الأساس الأوحد فى انجاز تلك الأعمال، وحتى الثورات التقدمية ألصقوها بفرد واحد أو مجموع ضئيلة من الأفراد،

عـهـدوا إليـهم بإدارة دفـة الأمـور وكـأنهم وحـدهم هم الذين أوتوا الحكمـة . وفصل الخطاب.

وليس معنى ذلك أننا ننكر دور الفرد فى التاريخ ولكننا نود أن نقول ليس بالفرد وحده يصنع التاريخ ويفسر، ولكن هناك عوامل أخرى تشترك مع هذا الفرد فى صنع الحدث التاريخى ومن خلالها جميعاً يمكن البحث عن الحقيقة التاريخية.

إن التـاريخ لا يمكن أن يصنعه فـرد واحـد مـهـمـا كـانت قـدرات هذا الفرد.. من النبوغ والعبقرية، اللهم إلا إذا اغفلنا عنصرى الزمان والمكان، فكثـيـر من الأفـراد قـد ارتدوا مـسوح العظمـاء وراحوا يختـالون فى لبـاس الشخصيات العظيمة لأن ظروف المكان والزمان قد ساعدتهم فى الوصول إلى القمة دون أن يملكوا من الزعامة والعظمة إلا اسمها فقط!

٣ـ التفسير المادى للتاريخ:

ويرتـبط هذا التـفـسـيـر بشـخـص كـارل مـاركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) الفيلسوف الألمانى وفردريك إنجلز الانجليزى.

وقد رفضت هذه المدرسة تفسير التاريخ على أسس دينية واعتبرت ذلك عملاً غيبياً لا يقف دليلاً قوياً لتفسير الواقعة التاريخية، كما أنها رفضت فى ذات الوقت التفسير القائل بأن التاريخ يسيره أفرده وأبطال، وراحت تتحدث عن عامل ثالث هو العامل الاقتصادى.

وفى رأى كارل ماركس أن الأوضاع الاقتصادية لأية جماعة ما هى التى تحدد صورة نظامها ومظاهر حضارتها، فلكى نفهم النظام السياسى لأى بلد ما أو طبيعة عقيديته الدينية وانتاجه الفنى والفكرى فعلينا أولاً أن ننظر إلى نظامه الاقتصادى.

ويقوم النظام الاقتصادى على الانتاج ونوعه وأساليبه وطرق توزيعه، وهذا الانتاج متطور دائماً ولا يخضع لأسلوب واحد. وهذا هو الذى ينتج عنه تطور المجتمع الذى يقوم عليه، من نظم Institutions وقوانين وأفكار وعقائد وآداب وفنون أو ما يسمى بالبناء الفوقى للمجتمع Super Structure.

ومعنى ذلك كله أن البحث عن أى أحداث تاريخية فى أى مجتمع ما لابد أن يصحبها بحث عن العوامل الاقتصادية التى أدت إليها، فوراء كل حدث تاريخى عامل أو جملة عوامل اقتصادية فقط.

ويقول كارل ماكس إن أوضاع الانتاج وعلاقاته هى التى تتحكم فى جميع العلاقات التى تقوم بين الناس فى أى مجتمع ما. ويضرب الماركسيون لذلك مثلاً بما يحدث فى الصناعة فيقولون إن الصانع الذى يجهتد فى صناعته يستطيع جمع أموال كثيرة يمكنه بها التوسع فى نطاق صناعته وبالتالى يفرض شروطه على العامل الفرد الذى يدخل فى خدمته، ونتيجة لذلك يزداد رأسمال صاحب المصنع ويقل نصيب العامل وبالتالى ينعدم التوازن بين المنتج والمتمتع بثمرة الانتاج.

وإعادة هذا التوازن فى نظر الماركسيين - لا يتم إلا بالتفاهم الجماعى بين العمال وبين صاحب رأس المال ما دام عملهم هو الثروة التى بين يديه الذى يجعله مضطراً للتفاهم معهم وهو ما نادى به البيان الشيوعى «المانيفستو الشيوعى» الذى نشره كل من ماركس وانجلز سنة ١٨٤٨ (يا عمال العالم اتحدوا).

وعلى هذا فإن الظروف المادية كما ذكرنا هى التى تحرك التاريخ فى تقديرهم. فالانقلابات والثورات السياسية سواء كانت عنيفة أو هادئة

ترجع أسبابها إلى أوضاع العمل والانتاج والملكية، أى أن الأوضاع المادية وأحوال الملكية وصراع الطبقات بعضها مع بعض هى التى تدفع عجلة التاريخ.

ولا ينفى ماركس ما للأفكار من أثر فى توجيه التاريخ ولكنها ليست عوامل مستقلة بذاتها بل هى ناتجة عن الأوضاع المادية. ومن القضايا التى ارتبطت بالنظرية الماركسية القول بأنه لا توجد مصالح مشتركة بين الطبقات المتصارعة وأن لكل نظام طبقه فالنظام الاقطاعى تمثله طبقة الأشراف، والنظام الرأسمالى تمثله طبقة أصحاب الأعمال والمقاولين، والنظام الاشتراكى تمثله طبقة العمال. وبما أن هذه الطبقات لا تلتقى حول أية أهداف أو مصالح فلا يمكنها ـ من وجهة نظر الماركسيين ـ أن تتعايش سوياً ولابد أن يحدث الصراع الطبقى بينهما حتي يسفر هذا الصراع عن موت الطبقة القديمة كما أنه لابد أن يتم القضاء على الخصوم بكافة وسائل العنف حتى يتم فرض ما أسموه بالحكم المطلق للطبقة العاملة أو دكتاتورية البروليتاريا، وهذا الصراع يظل قائماً فى مرحلة التحول من النظام الرأسمالى إلى النظام الشيوعى.

وهنا يوجه البعض نقداً لهذه الأفكار واتهاماً بالتناقض، فيكف يتسم القضاء على الخصوم بالعنف الذى يتنافى مع العدالة فى الحقوق التى ينادى بها الماركسيون، خصوصاً وأنه ثبت تاريخياً أنه يمكن أن يحدث شكل من أشكال التعايش بين الرأسمالية والشيوعية، ففى يوغسلافيا حدث نوع من التعايش بين هذين النظامين، وما سمعناه من وفاق بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأميركية هو أيضاً نوع من هذاالتعايش. وأخيراً نضيف إلي هذا وسائل التقدم العلمى والتكنولوجى التى إستخدمها

كلا المعسكرين الغربى والشرقى التى أحدثت نوعاً من التقارب بينهما حيث توحدت الأفكار، كما أن المشاكل التى عانى منها المعسكران حتمت عليهما أن يلتقيا تحت أى شكل من الأشكال لمواجهة مثل هذه المشاكل. كما أن ثورات الشباب فى كلا المعسكرين أيضاً هى نبضات مشتركة بينهما ناتجة عن تشابه كبير فى المشاكل التى تواجه كليهما.

ويوجه البعض نقداً آخر للتفسير المادى للتاريخ من حيث أن هذا التفسير الاقتصادى لا ينطبق إلا على العصر الحديث الذى تقدمت فيه العلوم والتكنولوجيا وأصبح الاقتصاد وأساسه الانتاج هو الشغل الشاغل للمجتمع، ومن ثم بات من العسير القول مثلاً بأن العامل الاقتصادى كان حاسماً فى توجيه تاريخ العصور الوسطى لأن رجال الدين والمفكرين والملوك كانوا هم الذين يحركون التاريخ آنذاك؛ ثم أن الذين نقلوا أوربا من العصور الوسطى إلى عصر النهضة الحديثة بما واكبهامن اكتشافات حديثة وفكرعلمى بارز كانوا من المفكرين وأصحاب النظريات لا العمال أو الزراع.

ومع ذلك ينبغى أن نشير إلى أن تمسك الماركسين بأهمية الانتاج قدم للعمال فائدة عظيمة حيث فتح لهم أبواب المشاركة فى الحكم على كافة المؤسسات ورفع شأنهم وهذا هو أحد الجوانب الايجابية لهذه النظرية.

٤ ـ التفسير المثالى

يعتبر الفيلسوف هيجل هو رائد التفسير المثالى (١٧٧٠ ـ ١٨٣١). والجدير بالذكر أن هذا اللون من التفسير قد اختلف حول مفهومه الكثيرون حيث صاغ هيجل فلسفته بأسلوب معقد صعب، لذا فإن هذه الفلسفة تحتمل

عدة تفسيرات وصلت إلى درجة التضارب. ومعروف أن الماديين قد أخذوا عن هيجل الجدلية التاريخية وأفادوا منها فى بناء مذهبهم وإن اختلفوا معها فى نهاية المطاف.

يقول هيجل إن الفكر أو الفكرة هى أساس كل ما هو موجود، وأن الأفكار والآراء هى التى تسير التاريخ، فالنهضة الأوربية والثورة الفرنسية مثلاً هما نتاج أفكار النابهين من الغرب الأوربى. كذلك فإن الأديان عند هيجل هى مشيئة علوية يوحى بها الله إلى من يشاء فتتشكل فى أذهان الناس أفكاراً يؤمنون بها ويتحركون إلى العمل.

ويعتبر صراع المتناقضات هو جوهر التطور عند هيجل، فكل ظاهرة تحوى تناقضاً داخلياً يدفعها إلى الأمام، ثم تتحطم فى النهاية لتتحول إلى شىء جديد يحمل المتناقضات ما يلبث أن يتحطم مكوناً موحداً جديداً... وهكذا).

ولتوضيح ذلك نسوق المثالين التاليين:

الأول من خلال المذهب الأبيقورى، وهو مذهب فلسفى يونانى يرى أن الخير فى اللذة، وقد انتهى إلى المنفعة (هذه فكرة). ثم ظهر بعد ذلك المذهب الرواقى، وهو مذهب فلسفى يونانى أيضاً كان يرى أن الخير فى سيطرة العقل على الشهوة. وانتهى إلى التقشف (وهذه فكرة مناقضة للفكرة الأولى).. ثم ظهرت بعد ذلك المسيحية التى يعتبرها هيجل وسطاً بين الحالتين.

والمثال الثانى يرى بأن المدنية تتقدم بفعل ورد فعل، بين النزعات المتضادة، فالعصور التى تتسم بالسلطة المطلقة تتلوها عصور فوضى، ومن اتحاد الاثنين معاً تتولد أو تنشأ مرحلة تتسم بالحرية الدستورية[١].

---

(١) نعمان السامرائى: أضواء على تفسير التاريخ . ص ١٤.

ويرى هيجل فى المسيحية أو روح المسيحية اجتماع العنصرين الإلهى والإنسانى.. أى الروح والبدن، أى الكنيسة والدولة والعبادة والحياة.. وهذه الثنائية كان يراها هيجل فى الكون كله.

وإذا كان بعض المفكرين غير المثالين يعطون العقل الإنسانى الأهمية الكبرى فى تفكيرهم على اعتبار أن الرأى يحكم الدنيا L' opinion gouvrne Lemonde، وكانوا بذلك واحديين Monists فى تفكيرهم، إلا أن هيجل كان ثنائياً يؤمن بوجود عنصرين متميزين مختلفين وهما الروح والمادة، وهما مجتمعان فى روح أو فكرواحد يعتبر القوة العليا التى تحرك كل شيء.. وهو العقل المطلق.. ويدلل هيجل على ذلك بنوع من الجدل أو الديالكتيك ليصل إلى خلاصة مؤداها أن العقل أو الفكر الإنسانى يسعى دائماً إلى التقدم ليصل إلى العقل أو العلم المطلق الذى يعتبره هيجل مثالاً يحتذيه، ولهذا وصف هيجل بالمثالى.

ويوجه البعض نقداً إلى فلسفة هيجل من جوانب عدة، فمثلاً اعتقد هيجل بأن كل عهد يأتى يكون أرقى من سابقه، لأن الفرضية ونقيضها وموحدهما هى من أشكال التطور، وأن (الموحد) الذى هو نتيجة الفرضية ونقيضها يجب أن يكون خطوة أوسع للأمام.. وبالتالى فإن أوجه الحضارة المختلفة تكون فى رقى دائم إلى الأمام.. إلا أن هناك أمثلة تخالف ذلك.. فالبشرية إذا كانت قد تقدمت حضارياً إلا أنها قد تأخرت فى المدنية، فالتقدم واضح وجليل فى العلوم والصناعة.. إلا أن التأخر الروحى والخلقى أكثر وضوحاً إلا إذا اعتبرنا أن القنابل الذرية والغازات السامة هى أرحم للإنسان من استعمال النبال والتراشق بالمنجنيق(١).

(١) نعمان السامرائى. المرجع السابق. ص ٢١.

الفصل الخامس

من مؤرخي مدرسة التاريخ الحديث

- عبدالرحمن الجبرتي
- محمد شفيق غربال
- عبدالرحمن الرافعى
- ارنولد توينبي
- محمد فؤاد شكرى

عبد الرحمن الجبرتى

(١٧٥٤ - ١٨٢٥م)

هو عبد الرحمن بن حسن بن ابراهيم بن حسن بن على ، وهو حبشى الأصل ، مصرى المولد والنشأة والموطن ، جاء أجداده مصر من بلدة جبرت الحبشية فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، ويقال أنهم من نسل على بن أبى طالب . وقد اختلف الباحثون قليلا حول مولده ووفاته ، فيقول البعض أنه ولد عام ١١٦٧ هجرية (١٧٥٤م ، وتوفى عام ١٨٢٥ ميلادية . وكان والده الشيخ حسن عالما من علماء الأزهر . وبالاضافة الى العلوم الدينية كان ملما بالعلوم الهندسية وغيرها . وعلى هذا نشأ الجبرتى فى بيئة علمية فشب على العلم والعلماء حتى أصبح من كبارهم وقام بالتدريس بالأزهر الشريف .

وتعد الكتابة عن سيرة عبد الرحمن الجبرتى فى غاية الصعوبة . فالجبرتى يختفى فى كتابه (عجائب الآثار) . ويزيد من هذه الصعوبة أن المعاصرين للجبرتى أو المقتربين منه لم يكتبوا عنه الا قليلا .

ولقد توثقت الصلة بين الجبرتى وبين كثير من علماء عصره مثل العالم اليمنى السيد مرتضى الزبيدى مؤلف كتاب (تاج العروس) وقد جاء الى مصر وأقام بها والتقى به الجبرتى وتعلم منه وأفاد منه افادة جمة .

ولقد شهد الجبرتى كثيرا من الأحداث الهامة فى تاريخ مصر والتى تركت آثارا كبيرا فى البلاد . وفى حياة عبد الرحمن الجبرتى . ومن أهم هذه الأحداث الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ م وانتهت عام ١٨٠١ م . ولم يقف الجبرتى من هذا الحدث الخطير موقف المتفرج أو المسجل له . بل انه شارك الفرنسيين فى أنشطتهم فكان عضوا فى ديوان الأعيان الذى أنشأه الفرنسيون بالقاهرة ووصفه وصفا دقيقا . ومن خلال هذه العضوية اتيحت له الفرصة كى يعرف الكثير من الأسرار التى لم يستطيع عامة الناس الاحاطة بها .

كذلك فان الجبرتى قد شهد جزء من عهد محمد على فى بدايته . وعلى الرغم من الاشادة الكبيرة التى لاقاها محمد على من حيث الانجازات الكبيرة - التى أقامها سواء فى المجال الداخلى من حيث الاهتمام بالزراعة والصناعة والتجارة وانشاء الاسطول النهرى . أو المجال الخارجى من حيث فتوحاته الكبيرة فى شبه الجزيرة العربية والسودان والمورة والشام - فان الجبرتى قد حمل على محمد على حملة شديدة أثارت دهشة المؤرخين . وقد فسر البعض ذلك بأن محمد على قد أضر الجبرتى وأساء اليه . وانه دبر لمقتل ابنه خليل . وأن الجبرتى كان يعمل ملتزما . ومعروف أن محمد على ألغى الالتزام . ويرى البعض فى تفسير هذه العبارة من جانب الجبرتى أن الأخير قد شهد مرحلة من حكم محمد على تميزت بالهدم .

ومعروف ان عهد محمد على تميز بمرحلتين : الأولى مرحلة الهدم حيث قضى فيها على نظام الالتزام الذى استغل فيه الملتزمون الفلاحين ، كما قضى على المماليك فى مذبحة القلعة . بالاضافة الى أنه قضى على مجموعة الجنود المرتزقة ليشكل جيشا نظاميا . وللأسف الشديد فان الجبرتى شهد هذه المرحلة الأولى ، مرحلة الهدم ولذلك كان موقفه يتسم بالعداء تجاه محمد على ، ولو قيض له أن يعيش ليشهد مرحلة البناء فربما غير رأيه .

ومن أهم مؤلفات الجبرتى :

١ – مدة الفرنسيس بمصر .
٢ – عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .
٣ – مظهر التقديس بذهاب (بزوال) دولة الفرنسيس .

وهناك مؤلفات أخرى لم يشر اليها الجبرتى فى مؤلفه الضخم (عجائب الآثار) ، مثل " مدة دخول الفرنسيس بمصر " أو " مدة الفرنسيس بمصر " .

وهذا المؤلف يشتمل على أحداث الشهور السبعه الأولى للحمله الفرنسية بمصر . كما ان الجبرتى لم يشر أيضا الى المختصر الذى دونه لكتاب (تذكرة أولى الألباب) لداود الأنطاكى . ولا للمؤلفه " الف ليلة وليلة " الذى أعاد كتابته بعد حذف الألفاظ النابية منه .

ويهمنا فى هذا المقام المؤلفان التاليان :

١ ـ عجائب الآثار .

٢ ـ مظهر التقديس .

ويعتبر كتاب عجائب الآثار فى التراجم والأخبار من أكبر أعمال الجبرتى ، ومن أهم تواريخ مصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين .

وقد طبع الكتاب فى مصر وخارجها عدة طبعات أهمها طبعة بولاق (١٨٧٩ / ١٨٨٠ م) التى جاءت فى أربعة أجزاء .

وقد حوى الجزء الأول والجزء الثانى منه تاريخ مصر فى ظل المماليك حيث راح يكتب باسهاب شديد عن عاداتهم وتقاليدهم وحفلاتهم وأعيادهم وطرق معيشتهم وصراعاتهم . ويثنى البعض على كتابات ووصف الجبرتى للمماليك حيث جاءت معبرة عن كل جوانب حياتهم بحيث لم يجاريه فيها أحد من الكتاب السابقين عليه أو المعاصرين له .

أما الجزء الثالث فهو خاص بأحداث الحملة الفرنسية على مصر منذ وطئت أرض مصر عام ١٧٩٨ حتى جلائها عام ١٨٠١ . وهذا الجزء هام ان لم يكن أهم الأجزاء التى يحويها الكتاب ، حيث تناول الحملة الفرنسية على مصر ، ولا يستطيع أى باحث أو أجنبى أن يكتب فى تاريخ الحملة الفرنسية دون الرجوع اليه .

أما الجزء الرابع والأخير من عجائب الآثار ، فخاص بالفترة الأولى من حكم محمد على — الى العشرينات من القرن التاسع عشر .
وفيه يؤرخ الجبرتى للأحداث التى تلت خروج الحملة الفرنسية من مصر والتى اتسمت بالصراع بين القوى السياسية التى ظهرت على المسرح السياسى الى أن تمكن محمد على من تولى حكم البلاد .

ولقد نهج الجبرتى فى كتابه عجائب الآثار نهج مؤرخى الاسلام فى العصور الوسطى ، حيث بدأ كتاباته ببدء الخليقة ليصل منها فى عرض موجز وسريع الى الفترة التى يريد التأريخ لها ومن ثم يبدأ التفصيل .

وكتاب عجائب الآثار يسير فى تأريخه على شكل يوميات مؤرخة بالتاريخ الهجرى . فهو يبدأ مع غرة المحرم يوما بيوم الى نهاية شهر ذى الحجة . ثم ينتقل الى سنة جديدة ، وهكذا يمضى حتى نهاية الكتاب .

وتحت تاريخ اليوم المحدد يدون الجبرتى كل ما حدث فى هذا اليوم سواء الأحداث السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية ، وليس هناك رباط يربط بين هذه الأحداث سوى أنها حدثت فى نفس اليوم .

وفى نهاية كل عام يترجم لكل من توفى فى هذا العام من أكابر القوم يدون ذلك مع ذكر الدور الذى قاموا به سواء فى المجال السياسى

او الاجتماعى أو الثقافى • وتعتبر هذه التراجم اضافة جديدة تميز بها الجبرتى فى كتاباته التاريخية • وهذه الشخصيات التى ترجم لها الجبرتى شغلت حيزا كبيرا فى تاريخه • ولذلك جعل عنوان كتابه " عجائب الآثار فى التراجم والأخبار " •

٢ ــ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس :ــ

ابتهج المصريون لخروج الفرنسيين من مصر فى عام ١٨٠١م • ورحبوا بعودة الدولة العثمانية الى حكم البلاد على الرغم مما لاقوة من عنت من جانبهم فى بعض الأحيان • ولكن المصريين لم ينسوا أن العثمانيين مسلمون مثلهم وممثلون لدولة الخلافة • مما جعلهم لا يشعرون فى أثناء حكمهم الطويل لا يشعرون بأنهم تحت حكم أجنبى على الرغم من رجال الحملة الفرنسية حاولوا أن يخففوا الوطأة ــ أحيانا ــ على المصريين ويشعرونهم بأنهم أرأف بهم وأرحم • لكن المصريين على الرغم من ذلك كله ثاروا على الفرنسيين •

ولقد كان الجبرتى كغيره من المصريين سعيدا بخروج وذهاب الفرنسيين عن البلاد • صور هذه المشاعر كلها فى كتابه مظهر التقديس • ويقال أنه حين عزم على تأليف كتابه عجائب الآثار اعتمد عليه اعتمادا كبيرا •

وكتاب مظهر التقديس وثيقة تاريخية هامة مكتوبة بيد شاهد عيان لأحداث الحملة الفرنسية على مصر منذ وصولها وحتى خروجها .
وتبدو الروح العدوانية واضحة فى هذا الكتاب تجاه الفرنسيين على الرغم من أن الفرنسيين أشركوه فى بعض مجالسهم لادارة البلاد .

ويقال أن الصدر الأعظم هو الذى كلف الجبرتى بكتابة هذا الكتاب . ونظرا لخوف الجبرتى من اتهامه بالتعاون مع الفرنسيين ، فقد أقدم على كتابته فجاء الكتاب مليئا بالمديح للعثمانيين والذم والشتائم للفرنسيين ، بينما يخلو منها عجائب الآثار .

ويورد أحد الباحثين احصائية جاء فيها ان مظهر التقديس توجد به واحد وثلاثون فقرة فيها سب للفرنسيين وثلاث عشرة فقرة مقتضبة فى عجائب الآثار جاءت مفصلة فى مظهر التقديس ، بينما تشابهت عشر فقرات فقط فى كل من عجائب الآثار و " مدة الفرنسيس " ومن ثم فان التشابه بين كتاب المدة ومظهر التقديس أكثر مما هو بين المدة وعجائب الآثار .

ويمكن القول أن الجبرتى فى تسجيل يومياته عن الحملة الفرنسية فى مظهر التقديس يختلف تماما عن اتجاهه فى " عجائب الآثار " .

وقد عالج الجبرتى فى كتابه عجائب الآثار أحداث الحملة بانصاف وحياد . فقد أبدى اعجابه بالسلطات الفرنسية أثناء محاكمة سليمان الحلبى . حيث أنهم لم يبادروا بقتله رغم القبض عليه متلبسا بسلاحه .

محمد شفيق غربـــــال

يعتبر المرحوم الاستاذ محمد شفيق غربال صاحب مدرسة خاصة فى البحث العلمى تحمل بصماته وتسير على منهجه ، ولا عجب فى ذلك ، فقد بدأ غربال حياته معلما وأنهاها معلمـــــا أيضا . فقد بدأ معلما فى المدارس الثانوية .

نال شفيق غربال درجة البكالوريوس مع مرتبة الشرف الأولى فى التاريخ الحديث من جامعة ليفربول فى سنة ١٩١٩ وعــــاد ليعمل مدرسا للتاريخ بمدرسة العباسية الثانوية بالاسكندريـــة ، وقد جاءته فرصة السفر الى انجلترا والتحق بجامعة لندن ، فنال درجة الماجستير فى التاريخ الحديث سنة ١٩٢٤ م. وكان عنـــوان رسالتـــه : " بداية المسألة المصرية وظهور محمد على "

The Begining of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Aly.

ولقد تتلمذ غربال على يد استاذ شهير وهو البروفسور أرنولد توينبى الذى أشرف على رسالته . وقد مدح توينبى تلميذه غربال قائلا : لقد استفدت من اشرافى على رسالته أكثر مما أفدته .

ولما عاد غربال من لندن عين لتدريس التاريخ فى مدرسة المعلمين العليا التى ظل بها الى أن نقل للجامعة فى سنة ١٩٢٩م حين كان الأجانب يشغلون أكثر كراسى التدريس بالجامعة • وسرعان ما وصل غربال الى كرسى استاذية التاريخ الحديث على الرغم من أنه لم يحصل على درجة الدكتوراه •

وقد يكون من المفيد أن نعرض لأهم الأعمال العلمية التى أخرجها شفيق غربال فى ميدان البحوث التاريخية ومن أوائل أعماله – كما سبق أن ذكرنا – رسالته للماجستير • كذلك فقد كتب بحثا تحت عنوان : " مصر على مفترق الطرق " وهو تحقيق لنص مخطوط من أيام الحملة الفرنسية على مصر يحوى اجابات حسين أفندى – كبير أفندية الروزنامة على أسئلة وجهها اليه بعض علماء الحملة الفرنسية عن أحوال مصر على عهد العثمانيين •

كذلك فانه كتب دراسة جاءت تحت عنوان :
" الجنرال يعقوب والفارس لأسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١ م " •

وهذه الدراسة تمثل نتيجة من نتائج الحملة الفرنسية على مصر والتقاء الشرق بالغرب وما صحبا ذلك من تفكير فى مستقبل مصر السياسى على أساس استقلالها •

كذلك فقد أخرج في سلسلة " أعلام الاسلام " كتيبا عن " محمد على الكبير " وهو يمثل دراسة عميقة لهذه الشخصية الخطيرة فى تاريخ مصر الحديث رغم صغر حجم الدراسة .

ولقد اتجه محمد شفيق غربال الى دراسة المسألة المصرية فأخرج كتابه " تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية الجزء الأول ١٨٨٤ ـ ١٩٣٦ م .

كذلك فقد أخرج كتابا بعنوان : " منهاج مفصل لدروس فى العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية على ما هى عليه اليوم . "
وهذا الكتاب لا يعتبره المرحوم غربال تاريخا للأمة العربية بقدر ما هو فلسفة لتاريخها .

وقد ترجم غربال كتاب " المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر " للمؤرخ الأمريكى كارل بيكر . وربما يرجع ترجمته لهذا الكتاب هو ايمانه بالمبادئ التى قامت عليها فلسفة القرن الثامن عشر .

ونختتم الترجمة لشفيق غربال بأهم أثر علمى فى حياته ـ بالاضافة الى دوره الهام فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ وغيرها

من المؤسسات العلمية ـ ألا وهو انشاء مدرسة ذات أسس قويمة فى دراسة التاريخ الحديث والتى اختار لها اسم (سمنار التاريخ الحديث) ذلك اللقاء الأسبوعى من امسيات كل خميس حيث يجتمع تلاميذه ولا يزالون ـ يلقون أبحاثهم وأفكارهم حتى أصبحت مدرسة لها تقاليدها وسمعتها العالمية فى دراسة التاريخ لدرجة أن بعض تلاميذ الدول العربية ممن تخرجوا منها راحوا ينشئون مدارس على شاكلة السمنار ٠

ومن أشهر تلاميذ غربال المرحوم الدكتور احمد عزت عبد الكريم ٠

ولقد توفى شفيق غربال عام ١٩٦١ م ، وظلت مدرسته باقية تحمل منهجه فى دراسة التاريخ الحديث ٠

عبد الرحمن الرافعى

ولد عبد الرحمن الرافعى فى ٨ فبراير عام ١٨٨٩ م فى أعقاب الاحتلال البريطانى لمصر ، وكان والده من علماء الأزهر ممن تولوا مناصب القضاء الشرعى فى أماكن كثيرة داخل مصر ، وبالاضافة الى ذلك تولى الافتاء فى الاسكندرية .

ولعل ما يعنينا هنا الجانب التاريخى من عبد الرحمن الرافعى ومعنى آخر الأعمال العديدة التى كتبها وأرخ بها للحركة الوطنية فى مصر منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى نهاية الخمسينات من القرن العشرين .

وقد بلغت أعمال الرافعى التاريخية خمسة عشر مجلدا بدأ فى اخراجها للقراء منذ عام ١٩٢٩ م طوال ثلاثين عاما .

ونود أن نشير الى أن سلسلة الكتابات التاريخية التى كتبها عبد الرحمن الرافعى جاءت تحت عنوان عام هو : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر .

ومن أهم هذه الأعمال التاريخية ما يلى :

- تطور الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر .
  الجزء الأول يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث . وبيان الدور الأول من أدوارها فى عهد الحملة الفرنسية .

- الجزء الثانى من اعادة الديوان فى عهد نابليون الى انتهاء الحملة الفرنسية . ومن جلاء الفرنسيين الى ارتقاء محمد على أريكة مصر بارادة الشعب .

- عصر محمد على : ويتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على .

- عصر اسماعيل : وهو يشتمل على جزئين :
  الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد اسماعيل .
  الثانى : وفيه ختام الكلام عن عهد اسماعيل .

- الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى .

- مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال : ويحوى تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٢ .

- مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية : ويحوى تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٨م.

- ثورة ١٩١٩ : تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢١م.

الجزء الأول يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ، وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة ، وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب الى شبوب الثورة فى مارس ١٩١٩ ، ثم وقائع الثورة فى القاهرة والأقاليم .

الجزء الثانى : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ومحاكمات الثورة ، ولجنة ملنر ، والحوادث التى لابستها ، ومفاوضات ملنر ، واستشارة الأمة فى مشروع ملنر ، والتبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية ، ونتائج الثورة فى حياة مصر القومية .

- فى اعقاب الثورة (ثورة ١٩١٩) .

الجزء الأول : تاريخ مصر القومى من ابريل سنة ١٩٢١ الى وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧م.

الجزء الثانى : تاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ الى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ م.

الجزء الثالث : تاريخ مصر القومى من ولاية فاروق فى ٦ مايو سنة ١٩٣٦ الى سنة ١٩٥١م.

- مذكراتى (١٨٨٩ - ١٩٥١) خواطرى ومشاهداتى فى الحياة .

- شعراء الوطنية فى مصر : تراجم وشعرهم الوطنى والمناسبات التى نظموا فيها قصائدهم .

- اربعة عشر عاما فى البرلمان : مجموعة أعمالى وأقوالى فى البرلمان . فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥ .
وفى مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ الى سنة ١٩٥١ .

- مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ : الكفاح الوطنى فى القنال سنة ١٩٥١ . حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ . وزارات الموظفين . أسباب الثورة - فاروق يمهد للثورة .

وهكذا يبدوا واضحا أن كتابات الرافعى التاريخية قد غطت أكثر فترات تاريخ مصر الحديث والمعاصر . وهذه ميزة طيبة تحسب لعبد الرحمن الرافعى . بالاضافة الى سهولة وبساطة اسلوبه الذى يتناول به الأحداث التاريخية .

ومن جهة أخرى تبدو هذه الكتب ذات أهمية بالغة من حيث اعتمادها على المصادر الأولية التى توفرت للكاتب • بالاضافة الى أنه كان معاصرا للأحداث بل ومشاركا فيها بشكل أو بآخر • كل ذلك يعطى هذه الأعمال التاريخية أهمية بالغة لا ينكرها منصف •

ومع ذلك كله فان هذه الكتابات لم تسلم من النقد • فالبعض يرى فيها قدرا من " التبسيط " للمشاكل والتيارات ونظره " محدودة الجوانب " فى تحليل الأحداث التاريخية •

ومن أمور النقد الأخرى التى توجه للرافعى أنه كان يكتب – أحيانا – من زاوية حزبية يعبر فيها عن الحزب الوطنى فقد كان أحد أعضائه البارزين • حيث شغل عضوية اللجنة الادارية بالحزب ومن ملازمى محمد فريد • وقد اعتقل الرافعى مع كثيرين من رجال الحزب فى أغسطس ١٩١٥ حيث كانت الحركة الوطنية المصرية فى ذلك الوقت تمارس الأعمال السرية ضد الانجليز وأعوانه •

ويمكن التدليل على حبه الشديد للحزب الوطنى بالقاء نظرة على عناوين كتابيه اللذين اختارهما للكتابة عن زعيمى الحزب المشهورين مصطفى كامل ومحمد فريد • فقد عنون الكتاب الأول كالتالى :

(مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية) والثانى (محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية) .

وعلى الرغم من أن منهج البحث التاريخى يرفض مثل هذه العناوين التى تحمل حكما مسبقا على الأفراد والأحداث مما يخلق بلبلة لدى القارئ تجعله - أحيانا - ينحاز مع أو ضد الحدث التاريخى ، وعلى الرغم من عدم عناية الرافعى الى التحليل التاريخى بشكل واسع ، فانه يمكن القول بأنه استطاع ان يخرج للقارئ مجموعة متكاملة عن تاريخ مصر الحديث والمعاصر لا غنى لأى فرد عنها سواء أكان هذا القارئ من المتخصصين الذين يجد فيها نصوصا كثيرة لبعض الوثائق ، أو من عامة القراء الذى يجد فيها البساطة والسهولة فى العرض مع التفاصيل فى آن واحد ، خاصة وأننا لا نجد كتابا متكاملا لتاريخ مصر الحديث يجمع بين دفتيه كل هذه الأحداث . لذلك كله فان الأعمال التاريخية التى كتبها الرافعى لا غنى للقراء - سواء أكانوا من الخاصة أو العامة - عنها .

أرنولد توينبى A. Toynbee

ولد أرنولد جوزيف توينبى فى لندن فى ١٤ ابريل عام ١٨٨٩ لأب يعمل موظفا فى شركة للشاى ، وأم حاصلة على درجة البكالوريوس فى التاريخ من جامعة كمبردج . ويذكر توينبى لأمه الفضل الوفير فى جعله مؤرخا حيث أذكت فيه حب التاريخ ، كما كان لها كتاب مدرسى فى التاريخ قامت بتأليفه ، فكانت صحبتها له صحبة فكرية ساحرة كما يروى هو نفسه فى أحد مؤلفاته . ولتوينبى مؤلفات عديدة منها :

- دراسة للتاريخ A study of history
- تجارب Experiences
- الحضارة على المحك والعالم والغرب .
  Civilization on trial and the world and the west, (Meridian Book, New York, 1958).
- بين النيجر والنيل Between Neger and Nile
- انشغال الانسان بالموت .
  Man's Concern with Death, London, 1958.
- البقاء فى المستقبل .
  Surviving the Future, London, 1971

وقد يكون من المفيد ان نعرض لأهم هذه الكتب قاطبة ، وهو دراسة للتاريخ حيث يعتبر هذا السفر الضخم من أهم أعمال توينبى العلمية . فقد أحصى البعض عدد صفحات المجلدات العشر

الاولى من هذا الكتاب ، فقال انها تبلغ ٦,٢٩٠ صفحة ، حـــوت ٣,١٥٠,٠٠ كلمة • واذا اضفنا الى هذه المجلدات المجلد الحادى عشر الذى أصدره عام ١٩٥٩ والذى بلغت صفحاته أكثر من ٢٥٠ صفحة ، والمجلد الثانى عشر الذى صدر عام ١٩٦١ والذى بلغت صفحاته أكثر من ٦٧٤ صفحة • لوجدنا ان هذا العمل الضخم تزيد صفحاتـــه على سبعة آلاف صفحة •

أما فكرة هذا الكتاب فيرويها لنا صاحبه قائلا : ان فكرته قد جاءتـه كتعليق على الجوقـــة الثانية فى مسرحية " انتيجونـــه " لسفوكليس ، حيث قام خلال سفره بالقطار من استانبول الى لندن فى ١٧ يوليـــة عام ١٩٢١ بكتابة اثنى عشر عنوانا على نصف ورقة • ثم راح المؤلف يكسو هذه الدراسة لحما فى عام ١٩٢٧ • وفى عام ١٩٣٤ أصدر المجلدات الثلاثة الاولى من كتابه ، وقبيل بداية الحرب العالمية الثانية بأكثر مـــن شهر أصدر ثلاثة مجلدات أخرى من الكتاب •

وقد شغل بالحرب فلم يستأنف العمل به الا فى عام ١٩٤٧ ، وفى عام ١٩٥٤ أصدر أربعة مجلدات أخرى هى تتمة الكتاب • وعـــاد وأصدر فى عام ١٩٥٩ المجلد الحادى عشر بعنوان " أطلس تاريخـــى ومعجم جغرافى " بالتعاون مع ادوارد مايرز • وفى عام ١٩٦١ أصـــدر الملجد الثانى عشر تحت عنوان " مراجعات " •

وقد أصدر سمرفيل عام ١٩٤٧ موجزاً للأجزاء الستة الأولى، ثم موجزاً آخر فى عام ١٩٥٧ للأجزاء من السابع حتى العاشر تحت إشراف توينبى. وقد جرت ترجمة لهذا المختصر فى جزئين قام بها الأستاذ محمد فؤاد شبل، ونشرتها الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، وقامت بطبعها لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة. وقد أصدر توينبى طبعة جديدة مختصرة ومنقحة ومصورة لكتابه مع جين كابلان فى مجلد واحد عام ١٩٧٢م.

ولقد قسم توينبى كتابه إلى ثلاثة عشر قسماً هى: المقدمة، تكوين الحضارات، نمو الحضارات، انهيار الحضارات، انحلال الحضارات، الدول العالمية، الكنائس (الأديان) العالمية، عصور البطولة، الاتصالات بين الحضارات مكانياً (المجابهات بين الحضارات المعاصرة)، والاتصالات بين الحضارات زمانياً (عصور النهضات)، القانون والحرية فى التاريخ، مستقبل الحضارة الغربية، والهامات المؤرخين.

وفى موجزه الذى أصدره فى نهاية عام ١٩٧٢ عدّل من هذا التقسيم وجعله أحد عشر قسماً هى: شكل التاريخ، تكوين الحضارات، نمو الحضارات، انهيار الحضارات، الدول العالمية، الكنائس (الأديان)، عصور البطولات، الاتصالات بين الحضارات مكانياً، الاتصالات بين الحضارات زمانياً، ولماذا يدرس التاريخ؟

ولقد تمرد توينبى فى كتابه على منهج المؤرخين الغربيين واعتبر المجتمع أو الحضارة هى المادة الصالحة لدراسة التاريخ. وقد احصى توينبى فى تاريخه إحدى وعشرين حضارة درسها واستنتج منها قوانينه. وهذه الحضارات هى : المصرية والسومرية والبابلية والحيثية والسيريانية والمينوية والهيلينية والايرانية والعربية والهندوسية والهندية والصينية وحضارة الشرق الأقصى والاندية واليوكاتيكية والمايانية والمكسيكية والمسيحية الارثوذكسية الروسية. وقسم حضارة الشرق الأقصى إلى حضارة صينية وحضارة كورية يابانية، ثم الحضارة الغربية.

وفى مسيرة التحضير ابتلعت أكثر هذه الحضارات ولم يتبق منها سوى سبع حضارات هى: الارثوذكسية المسيحية، الارثوذكسية الروسية، والإسلامية (التى تضم الحضارتين الايرانية القديمة والعربية)، والهندوسية، والصينية، والكورية اليابانية والغربية.

ولقد لعبت فكرة التحدى والاستجابة عند توينبى دوراً رئيسياً فى تفسير التاريخ واستخلاص نتائجه، ولم يكن توينبى هو الوحيد الذى استخدم هذه الفكرة فى الدراسات العلمية. فلقد استخدمها

من قبل هيجل وأنشأ منها نظريته في منطق الجدل وهي عماد المذهب الماركسي حيث استخلص منها ماركس وأتباعه أفكارهم عن المادية الجدلية والمادية التاريخية وتناقضات النظام الرأسمالي والصراع الطبقي وغيرها . كما استخدمها ايضا مالتوس الاقتصادي الانجليزي في تشييد نظريته (التناحر على البقاء).

ويدين توينبي الى الفلاسفة الصينيين في الوصول الى هذه النظرية فقد عرفت فكرة التحدي والاستجابة من قديم في المأثورات الصينية ، حيث كان يطلق على السكون لفظ ين (Yin) وعلى الحركة لفظ يانج (Yang) وآمن القوم بفكرة مؤداها ان السكون يتحول الى حركة دافعة بفضل تداخل عامل من العوامل وبالتالي ينقلب الشيء الى نقيضه في ظل ظروف خاصة .

والانسان ، وفقا لمنطق توينبي ، مسير ومخير معا . فاذا كان المنطق المادي مثلا قد أوجب تألق الحضارة في ذلك القسم من وادي النيل الأدنى ، فان توافر نفس البيئة لم يبعث الى الوجود حضارة مشابهة في وديان وأنهار الأردن وريوجراندي وكلوراد و مع أن بيائتها الطبيعية تشبه بيئة وادي النيل الأدنى .

وهناك تساؤل عما اذا كانت هناك صفات معينة متوافرة في البيئة لا تؤدي الى انبعاث الحضارة ، فهل العنصر البشري هو العامل

الأساس فى انبعاثها فى منطقة بذاتها • أو بمعنى آخر هل يرتبط التفوق الذهنى والروحى بالنقص النسبى فى صبغة البشرة كما يظن معتنقوا نظرية التفوق العنصرى ؟

ويجيب توينبى بأن الحضارة المصرية وهى أطول الحضارات عمرا صنعها جنس أسمر • والحضارة الصينية صنعها جنس أصفر • وحضارة امريكا الوسطى صنعها جنس أحمر • وهناك شعوب بيضاء لم تقدم للحضارة أية اسهامات •

والخلاصة ان الحضارة عند توينبى ليست وليدة العوامل البيولوجية أو البيئة الجغرافية كل بمفردها • لكنها نتاج التفاعل بينها جميعا وبمعنى آخر ان عامل الحضارة ليس شيئا مفردا لكنه متعدد " وهو ليس وحدة • ولكنه علاقة ••• هو التقاء أو قل ان شئت تصادم بين العوامل •• أو كما أسماه توينبى تحدى واستجابة •

وقد أورد توينبى طائفة من الأمثلة توضح فكرته فى كافة المجالات ومن الأمثلة على ذلك غزو الهكسوس لمصر الذى استثار طاقات الابداع المصرية فأمكنها بعد قرن ونصف من الاحتلال طردهم وانشاء امبراطورية مصرية كبرى فى عهد تحتمس الثالث وتزويد الحضارة المصرية بطاقة هائلة مكنتها من الحياة لفترة طويلة •

كذلك فقد استثارت هزيمة العثمانيين امام تيمورلنك استجابة مكنتهم بعد نصف قرن من هزيمتهم من الاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على الامبراطورية البيزنطية . وهذه كلها تحديات خارجية أنتجت استجابات .

وقد تكون هناك استجابات اخرى من الداخل تنشأ داخل المجتمع ، حيث يشبه توينبى المجتمع بالجسم الانسانى .. فعندما يبتلى الجسم بفقد عضو من اعضائه أو ملكة من ملكاته يعتبر هذا الفقدان او الخسارة تحديا يستجيب له الانسان المصاب بالتخصص فى استعمال عضو آخر أو ملكة أخرى لدرجة انه يمكنه ان يتفوق على أقرانه . فالذين يفقدون ابصارهم ، مثلا ، يمكنهم تنمية شعور حاسة اللمس بشكل يفوق المبصرين .

وهذا كله ينطبق على الكيان الاجتماعى ، فان أية جماعة أو طبقة ينالها الأذى او النقمة اجتماعيا كالحد من حريتها مثلا أو نشاطها يمكنها الاستجابة للتحدى المقيد لحريتها وذلك من خلال تركيز طاقتها فى ميادين أخرى والتفوق فيها . فعلى سبيل المثال استجاب زنوج امريكا لتحدى البيض الذين مارسوا التفرقة العنصرية مع الزنوج وسدوا أمامهم كل منافذ الطرق للتفوق الذهنى ، وراحوا يستجيبون لهذا التحدى بالتفوق فى المجالات الرياضية والتى استمر تفوقهم فيها حتى الآن ورفعوا علم أمريكا فى المحافل الرياضية أكثر مما فعله البيض .

وقد يكون من العسير حقا على المرء أن يتناول — فى هذا المقام — جميع القضايا التى تناولها توينبى فى كتبه ، فقد كان غزير الانتاج واسع الاهتمام ، متشعب المسالك . ولكن مع ذلك نسوق بعضا منها علها تؤدى الى الغرض الذى نرمى اليه فى فهم توينبى كمؤرخ له باع كبير فى الحقل التاريخى .

وقد تناول توينبى قضية الحرب واعتبرها ام الكبائر ودليلاً على فشل الانسان خلقيا ، وقد ولدت الحروب عندما أصبح لدى الانسان فائض من الوقت والطاقة والانتاج يزيد عن حاجته الضرورية . ويعلق على جرائم الولايات المتحدة فى فيتنام قائلا : ان الناس فى الولايات المتحدة الامريكية قد تعودوا أن يشاهدوا بانتظام فى التليفزيون مشاهد من الحياة الواقعية ، حيث يقتل الجنود ويجرحون فى فيتنام . وألفها الأطفال من كثرة مشاهدتها ، وكان يجب ان يكون رد الفعل على هذه المشاهدة المباشرة لوقائع الحرب اصرار من الأمة كلها على ايقافها فورا فى فيتنام ، الا أن مشاهدة هذه الحرب على التليفزيون بدلا من أن تقرب الناس من هذه الوقائع جعلتهم يشعرون انها غير حقيقية ، وذلك لربط العقل الباطن لهذه المشاهد التليفزيونية بالتمثيل وليس بالحياة الحقيقية . فمشاهد المعارك تحولت فى عقول المشاهدين الى وهم . فكل طفل يعلم ان القتل عند " الغربيين " غير حقيقى ، ومن هنا يصبح القتل الحقيقى — عندما يقدم كغرس — وكأنه أيضا غير حقيقى . وهذا يجعل المشاهد فاقد اللاحساس ومتحجر القلب .

كذلك فقد تعرض توينبى لقضية الوحدة الاسلامية ، وعاب على الاتراك والعرب وغيرهم من الشعوب الاسلامية تبنيهم للقومية الغربية " المثل الأعلى السياسى الغربى الضيق القلب " رغم أن لهم تراثا يجعل من المسلمين اخوة بفضل دينهم المشترك بالرغم من اختلاف اجناسهم ولغاتهم وأوطانهم .

ولما كان توينبى يقف معارضا للقوميات ، فانه كان يرى ان هذا التراث الاسلامى ، الذى يعتبر المسلمين اخوة ، أفضل كمثل أعلى فى تلبية حاجات العصور الاجتماعية من التراث الغربى الذى ينادى باستقلال عدد من القوميات . وفى كتابه (البقاء فى المستقبل) استرعت جامعة الأزهر انتباه توينبى حيث الثقافة الاسلامية الواحدة التى تقدم باللغة العربية لجميع الطلاب على اختلاف أجناسهم ولغاتهم .

وفى مواضع كثيرة من كتابه (تجارب) يتحدث عن قضية فلسطين ويقول " لست أؤمن أن اليهود شعب الله المختار . ان اعتقاد المرء بأن قبيلته هى شعب الله المختار هو خطأ القومية . انه خطأ اخلاقى وفكرى " .

وقد دافع عن حق الفلسطينيين فى وطنهم وندد بجريمة اسرائيل ومواقفها اللاأخلاقية . ويقول أيضا " ان الاستعمار الاسرائيلى منذ انشاء دولة اسرائيل هو أحد أسوأ حالتين فى جميع تاريخ الاستعمار فى العصر

الحديث ... وأن الصهاينة من اوربا الشرقية يزاولون الاستعمار في فلسطين على شكل طرد السكان العرب المواطنين ، وسلبهم ممتلكاتهم في الوقت الذي ترك فيه الاوربيون الغربيون حكمهم الموقت للشعوب غير الأوربية . والصورة الثانية من الاستعمار تمت في الولايات المتحدة ما بين عامي ١٨٢٠ ، ١٨٣٨ م عندما سلبت أراضي السكان الأصليين لخمس ولايات ومساندة الجيش الأمريكي .

وفي حوار جرى بين توينبي وبين الصحفي البريطاني لويس ايكس ونشر في مجلة دراسات فلسطينية Palestine Studies عام ١٩٧٣ م وجه الصحفي سؤالا اليه : هل تعتقد ان بلفور كان أعمى عن رؤية مرامي التصريح ؟ فأجاب توينبي : كلا . لقد كان يفهمها . وهناك مذكرة منه الى زملائه في الوزارة يقول فيها : لا أستطيع ان أفهم لماذا جعلتم هذا انتداب حرف " أ " الذي يعني حق تقرير المصير ، اذ أننا لا ننوى ان نعطي هؤلاء حق تقرير المصير . وهو يعني " بهؤلاء " الفلسطينيين العرب . اذن فقد كان يعرف ما يفعل . وأضاف توينبي انني أقولها لك صريحة : لقد كان بلفور رجلا شريرا ... وكان يعرف كل التعبيرات الغامضة مثل تعبير (وطن قومي) ، وكانت هذه متعمدة في تصريح بلفور ، وكذلك قوله " الحقوق المدنية والدينية " وليست

"الحقوق السياسية" للجماعات غير اليهودية الأخرى في فلسطين • وأضاف توينبى كذلك : انني اعتقد ان كل كلمة قد كتبت بعناية لتكون غامضة وهذا أمر سيء جدا •

وقد تعرض توينبى الى موضوع طريف وهو موضوع أبحاث واكتشاف الفضاء • فهو لا يشارك المتحمسين لهذه الاكتشافات لأنه يعتقد ان أى قرار يتخذ ينبغى ان يراعى الاولويات • وأبحاث الفضاء أعطيت الأولوية على اطعام واسكان وكساء الغالبية الفقيرة من سكان هذا العالم • ووصف المنافسة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى هذا المجال بأنها " منافسة صبيانية" وعمل غير أخلاقى فى عصر معظم الناس فيه فقراء • وهو عمل اجرامى فى زمن تسلحت فيه الدولتان الكبيرتان بالأسلحة الذرية • ويضيف • انني لا أريد حذف برامج الفضاء من جدول الأعمال ولكن ينبغى أن تعطى مكانا متأخرا فى قائمة الأوليات •

محمد فؤاد شكرى (١٩٠٤ ـ ١٩٦٣)

نشأتـــــه :

ولد الدكتور محمد فؤاد شكرى فى السابع والعشرين من أغسطس عام ١٩٠٤ ، وتلقى تعليمه العام بالمدارس المصريــــة ، وتخرج من مدرسة المعلمين العليا عام ١٩٢٧ ، ثم عمــــل مدرسا للتاريخ بالمدارس الثانوية فى مصر . وقد أرسل محمـــد فؤاد شكرى فى بعثة الى جامعة ليفربول فى انجلترا فحصـــل على درجة الماجستير فى عام ١٩٣١ والتى كان عنوانهـــــا

The Mission of Charle Gordon in the Sudan 1884 - 1885. (حملة غوردون فى السودان ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥) .

وفى عام ١٩٣٥ حصل على الدكتوراه والتى جاءت تحـــت عنوان :

The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan (1863 - 1879).

(الخديو اسماعيل والرق فى السودان (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) .

وفى عام ١٩٣٦ عين مدرسا للتاريخ الحديث فى كليـــة الآداب جامعة فؤاد الأول ، ثم عمل مفتشا للتعليم الثانـــوى عام ١٩٤١ فأستاذا مساعدا للتاريخ الحديث فى جامعـــــة فؤاد الأول ، ثم أصبح أستاذ للتاريخ الحديث بجامعة القاهـرة

منذ عام ١٩٥٢ حتى وفاته عام ١٩٦٣ .

أهم مؤلفاتــه :

يمكن القول بأن مؤلفات الدكتور محمد فؤاد شكرى قــد تمحورت حول ثلاثة محاور :

١ – تاريخ مصر والسودان .

٢ – تاريخ المسألة الليبيــة .

٣ – تاريخ اوربا الحديث والمعاصر .

فالمحور الأول قد استهل به حياته العلمية حيث حصـل على الماجستير والدكتوراه فى تاريخ السودان من خلال دراستين : الأولى حملة غوردون فى السودان بين عامى ٨٨٤/١٨٨٥ والثانية التى حصل بها على الدكتوراه حول الرق فى السودان فى عهـد اسماعيل كما سبق الاشارة الى ذلك .

كذلك فقد أخرج الدراسات الآتية :ـ

- مصر والسيادة على السودان . الوضع التاريخى للمسألــة (١٩٤٧) .
- الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ ـ ١٨٨٥ . دار الفكر العربى . القاهرة ، (١٩٤٧) .
- مصر والسودان . تاريخ وحدة وادى النيل السياسيـــة فى القرن التاسع عشر . (١٨٢٠ ـ ١٨٩٩) . (دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٧) .

- بناء دولة مصر محمد على (السياسة الداخلية)
دار الفكر العربى • القاهرة ١٩٤٨ •
- عبد الله جاك مينو وخروج الفرنسيين من مصر • (نشر عام ١٩٥٢) •
- مصر فى مطلع القرن التاسع عشر (نشر عام ١٩٥٨) •

وهناك أيضا بعض المقالات التى نشرت فى بعض الكتب والدوريات مثل :-

- الامبراطورية الافريقية - صفحة من تاريخ مكافحة الرق والنخاسة فى السودان (كتاب : اسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاته - ١٩٤٥) •
- صفحة من تاريخ السودان الحديث - رحلة محمد على الى السودان ١٨٣٨ - ١٨٣٩ ، ونشر جريدة الرحلة • (مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول • ديسمبر ١٩٤٦) •

والمحور الثانى دار حول المسألة الليبية حيث أخرج لنا كتابين شهيرين وهما :-
- السنوسية دين ودولة (نشر عام ١٩٤٨) •
- ميلاد دولة ليبيا الحديثة ووثائق تحريرها واستقلالها • وقد نشر الجزء الأول منه فى القاهرة عام ١٩٥٧ وتناول الفترة الزمنية الواقعة بين عامى ١٩٤٥ ، ١٩٤٧ •

وقد تناول فى الكتاب الأخير تطور القضية الليبية منذ طرحت على مؤتمر وزراء خارجية الدول الكبرى فى سبتمبر ١٩٤٥ وحتى توقيع ايطاليا لمعاهدة الصلح فى فبراير ١٩٤٧ ٠

وقد عرض فى هذا الكتاب تاريخ حياة وجهاد بشير السعداوى منذ الغزو الايطالى لليبيا عام ١٩١١ وحتى تأسيس هيئة تحرير ليبيا عام ١٩٤٧ ، بالاضافة الى نشره لبعض من الوثائق المتعلقة بالقضية ٠

وقصة اتصال الدكتور محمد فؤاد شكرى بالمسألة الليبية تعود الى عام ١٩٤٧ حين انتدبته وزارة الخارجية المصرية عضوا فى لجنة البحوث التى شكلتها مصر فى اكتوبر من نفس العام لدراسة مسألة المستعمرات الايطالية السابقة ٠ وقد قدمت اللجنة بحوثا كانت عاملا لاتخاذ مصر موقفها السياسى من المسألة الليبية ٠ ثم تم انتدابه فى نوفمبر عام ١٩٤٧ مستشارا فنيا لوفد مصر الى مؤتمر لندن الذى عقد فى نوفمبر ١٩٤٧ للنظر فى قضية المستعمرات الايطالية السابقة ٠ كذلك فقد انتدب فى فبراير عام ١٩٤٨ للسفر الى طرابلس كمستشار لهيئة تحرير ليبيا ومساعد فنى لرئيسها بشير السعداوى ، وظل الدكتور شكرى قريبا من المسألة

الليبيــة فى مراحلها المختلفة وعرضها على المحافل الدوليــة حــتى الاستقلال • وقــد أتاحت هذه الظروف للدكتور عكرى الحصول على وثائق القضية الليبية كاملة ، الأمر الذى أعانــه فى كتابة مؤلفــه عن ميلاد دولة ليبيا الحديثة فى عــــام ١٩٥٧ م •

أما المحور الثالث فقــد دار حول تاريخ أوربا •
ومن أهم دراساته فى هذا المجال :ـ

- الصراع بين البرجوازية والاقطاع (ثلاثة مجلدات) •
  (دار الفكر العربى ـ القاهرة)
- دراسة فى التاريخ الأوربى المعاصر ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ •
  (دار الفكر العربى ـ القاهرة) •
- اوربا فى العصور الحديثة • (مكتبة الانجلو المصريــة ، ١٩٥٧) •

واذا حاولنا أن نتبين اسلوب ومنهاج الدكتور شكــرى فى الكتابة التاريخية ، فيمكننا القول إنه كان يمتاز بحشــد ركام هائل من الوثائق والتقارير داخل مؤلفاته ، الأمر الــذى يشبع نهم الباحث والقارئ العادى فى آن واحد • وقــد أتاح له اقترابه من الساسة ورجال الحكم ومشاركته فى بعض القضايا السياسية تجميع هذه الوثائق كما هو الأمر بالنسبــة

للمسألة الليبية . وتبدو مثل هذه الوثائق والتقارير أيضا فى كتابه : بناء دولة مصر محمد على وغيرهما .

وقد يؤخذ عليه أحيانا أنه يصدر أحكاما مسبقة فى العناوين التى يختارها لمؤلفاته مثل : مصر والسيادة على السودان ، مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ، السنوسية دين ودولة ، وغير ذلك . فمثل هذه العناوين وما تحمله من بعض الكلمات (سيادة ـ وحدة ـ دين ودولة ... الخ) قد تفرض على القارىء فكرا معينا دون أن تترك له الخيار فى أن يفهم أو يستخرج مثل هذه الأفكار ، وهو ما يصطدم مع منهج البحث التاريخى .

ولكن مثل هذه الأمور لا تقلل من منهجية الدكتور شكرى . فقد جمع مادة غزيرة وحلل ونقد وأماط اللثام عن الكثير من الأحداث التاريخية وأصبح رائدا فى تلك المجالات التى طرقها فى تاريخ السودان وليبيا الحديث .

وقد توفى الدكتور محمد فؤاد شكرى عام ١٩٦٣ تاركا الكثير من الدراسات ولا سيما الوثائق الهامة فى المجالات التى تعرض لها فهل تلقى العناية ؟!

أهم المؤلفات والدراسات التي عنيت بمنهج البحث التاريخي

أولاً: باللغة العربية:

- أحمد شلبي: كيف تكتب بحثاً أو رسالة - دراسة منهجية لكتابة البحوث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه ط٩، ا لقاهرة ١٩٧٦.
- ادوار كار: ما هو التاريخ، ترجمة أحمد حمدى محمود، سلسلة الألف كتاب، القاهرة ١٩٦٢.
- أسد رستم: مصطلح التاريخ، بيروت، ١٩٣٩.
- انجلز: التفسير الاشتراكى للتاريخ، ترجمة د. رأفت البراوى، القاهرة، ١٩٦٨.
- إيست: الجغرفيا توجه التاريخ، ترجمة جمال الدين الديناصورى، سلسلة الألف كتاب. العدد ٩١.
- بليخانوف: تطور النظرة الواحدية إلى التاريخ، ترجمة محمد مستجير مصطفى. القاهرة ١٩٧٠.
- جمال الدين الشيال: التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٥٨.
- وولش، مدخل لفلسفة التاريخ ترجمة أحمد حمدى محمود. القاهرة ١٩٦٢م.
- ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، ترجمة عبدالعزيز جاويد، القاهرة ١٩٧٢.

– حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، دار المعارف ط٥، ١٩٨٤ .

– حسين فوزى النجار: التاريخ والسير: المكتبة الثقافية. وزارة الثقافة والإرشاد العدد ١٢١، القاهرة ١٩٦٤ .

– حكمت أبو زيد: التاريخ. تعليمه وتعلمه حتى نهاية القرن التاسع عشر. القاهرة، ١٩٦١ .

– كاسيرر، أرنست: فى المعرفة التاريخية – ترجمة أحمد حمدى محمود. القاهرة.

– كولنجوود : فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، القاهرة ١٩٦١ .

– محمد أحمد حسين : الوثائق التاريخية، القاهرة ١٩٥٤ .

– محمد أحمد أنيس: مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى، القاهرة ١٩٦٢ .

– محمد مصطفى زيادة: المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر، القاهرة ، ١٩٥٠ .

– محمد مصطفى صفوت: التاريخ، أهميته وطرق تدريسه. مستخرج من مجلة العلوم. القاهرة ١٩٤٢ .

– محمد عبدالله عنان: مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى. القاهرة ١٩٦٩ .

– سيد أحمد على الناصرى: فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه. القاهرة، ١٩٨٣ .

- عبدالرحمن بدوى: مناهج البحث العلمى، القاهرة ١٩٦٨م.

- عبدالرحمن بدوى: (مترجم) النقد التاريخى، القاهرة ١٩٦٣.

- قسطنطين زريقه: نحن والتاريخ. بيروت، ١٩٥٩.

- توينبى، أرنولد: مختصر دراسة التاريخ، ٤ أجزاء، ترجمة فؤاد شبل. القاهرة ١٩٦١.

- غوستاف لوبون: فلسفة التاريخ - ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٥٤.

- مارو: من المعرفة التاريخية. ترجمة جمال بدران، القاهرة، ١٩٧٧.

ثانياً: بلغات أوربية:

1 - Freenan, E . A: The Methods of Historical Study. Londen 1886.

2 - Garrghan, G . J : A Guide to Historical Method. Fordham University Press, 1951.

3 - Oman. Sirch : On the writing of History. London, 1939.

4 - Renier, G . J : History : its purpose and method, Iondon, 1950.

5 -- Rowse, A . L : The use of history. london, 1446.

6 - Taylor, H : History as a science, london, 1933.